القسم الأول

ما هي الفلسفة

obeikandl.com

الفصل الأول

يقظة العقل البشرى

تمثل حياة الشعوب القديمة والبدائية الخطوة الأولى فى حركة الانسانية نحو الحضارة والمدنية كما تعد عناصر هذه الحياة من صناعات ونظم وديانات البذور الأولى للمدنية العالمية فى صورتها الزاهية الحاضرة .

وقد عثر المؤرخون وعلماء الانسان لدى تلك الشعوب على ديانات مختلفة الصور يحمل بعضها طابع السذاجة والطفولة العقلية ويبدو على بعضها سمات الرقى والسمو الفكرى بدرجات متفاوتة .

وتتعرض هذه الديانات غالباً لتفسير الكون وتذهب فى ذلك مذاهب شتى ولكنها بوجه عام تنزع إلى اعتبار الوجود نتيجة لعملية تاريخية كبرى تبدأ بأصل مشترك وتنتهى إلى تكوين الأرض والسماء ، والماء والنبات ، والحيوان والإنسان .

فالبابليون مثلا يرون أن أصل الكون الماء ففى البدء قبل أن تسمى السماء وأن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر ، وكانت مياهما مختلطة فصنعا الآلهة ، وفصل أحد الآلهة المياه فجعل المياه العليا والمياه السفلى ، وركب فى السماء النجوم والسيارات ، والقمر والشمس ، ثم صنع البشر من دمه ، وخرجت صنوف الحيوان من البحر .

وتفسر مدرسة عين شمس المصرية ظهور الكون بأسلوب مشابه ففى البدء

كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان الإله الأول فى وحدته ثم صنع الآلهة واشترك هؤلاء فى صنع العالم .

وتتضمن قصائد هوميروهزيود التفسير اليونانى . وهذا التفسير يثبت الآلهة كغيره من تفسيرات الشعوب الأولى . ولكن آلهة الإغريق يختلفون عن آلهة الشعوب الأخرى فى مدى قدرتهم . فهم إلى البشر أدنى منهم إلى الآلهة . ويعيشون فى قمة جبل الالب فى صور بشرية وحياتهم كحياة البشر فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وفيهم شهوات ولهم نقائص ولكنهم أذكى من الانسان عقلا ، وأقوى جسوما .

والآلهة كما يصورهم هوميرمختلفون فى صلتهم بالكون عن آلهة الشعوب الشرقية المعاصرة فهوميرلا يعزو إليهم خلق الكون مع أنه المهمة الكبرى التى يعزوها إليهم الدين البابلى وغيره . بل الواقع أنه لم يحاول تعليل الخليقة ولا تفسير نشوء الكون ، أما هزيود فقد حاول شيئاً شبيهاً بهذا فى قصيدته المسماة « بأصل الآلهة » فقد صعد فيها إلى البدء وشرع يبين تسلسل الآلهة والأشياء فى ترتيب ونظام متسق .

وتتلقى الشعوب الأولى عقائدها عادة بالتسليم مهما بلغت غرابتها وشذوذها وما كان لشعوب مشغولة بالبحث عن الطعام والنضال ضد الطبيعة أن تسلك غير هذا المسلك ، وبخاصة إذا كان الذكاء الفطرى فيها لم يصل بعد إلى مستوى عال وما هو إلا أن ينضج الذكاء وتظهر حياة الفراغ ويتصل الشعب بمن جاوره من الشعوب ويطلع على ثقافاتها المختلفة حتى يدب دبيب الشك فى تلك العقائد الموروثة الساذجة ويتداعى بنيانها فى نفوس الطبقة المثقفة على الأقل .

وبانهيار هذه العقائد يتغير الحال ويجد الجديد . فقد كانت هذه العقائد

حاولا لمعضلة الكون يستمد منها الانسان إيمانه ، و يجد فيها راحته العقلية فاذا تداعى بنيانها عاد الوجود كما كان معضلة كبرى تحتاج إلى حل جديد .

وفى مثل هذا الظرف ولدت الفلسفة فى بلاد اليونان

ففى القرن السادس قبل الميلاد فى مدينة ملطية من إقليم يونيه بآسيا الصغرى كان يقيم رجل ثرى مثقف يعيش عيشة الأثرياء المثقفين وهو طاليس الشهير فى تاريخ الفكر الانسانى . وأكبر الظن أنه بدأ حياته كما بدأ غيره من معاصريه مؤمناً بالموروث من عقائد قومه وتقاليدهم . ومهما يكن من شىء فلا شك أنه قد عرف دين قومه وثقافتهم . فقد كان اليونان حراصاً على تنشئة أبنائهم على دراسة شعر هوميروهزيود . وطبيعى أن يمر به حين من الدهر يتلقى فيه كل ذلك بالقبول ولكن طاليس قد مرت به بعد ذلك تجارب أثرت فى تفكيره تأثيراً عميقا . فقد قدر له أن يرى شعوباً أخرى تختلف عن قومه فى العقائد والنظم والآداب ، فقد زار مصر وغيرها من الممالك ، وتدل الدلائل على أنه اهتم بالثقافات التى رآها فى مصر وغير مصر ، ففكر فيها واقتبس منها . فلنا إذن أن نتوقع ما يحدث عادة عند التقاء الثقافات المختلفة فى العقول الممتازة بالذكاء والقوة وأول ذلك فترة شك يعقبها دور تحرير وتفكير .

ونظرة واحدة إلى فلسفة طاليس تكفى لاكتشاف ماحدث . فقد اتجه بجهوده الفكرية إلى دراسة معضلة الكون محاولا أن يجد لها تفسيراً معقولا يبين مادته الأولى وكيف نشأ منها عالم ملىء بالكائنات المتنوعة من هواء وماء وأرض ونبات وحيوان .

وغنى عن البيان أن هذه عملية لا يقوم بها رجل لايزال يؤمن بالموروث من عقائد قومه وآدابهم فلنا إذن أن نقدر مطمئنين إلى صحة التقدير أن طاليس

حينما بدأ يفكر فى حل المعضلة الكونية لم يكن يرى أن فى دين قومه بيانا معقولا لها وأنه كان إذ ذاك يمر بفترة شك .

والجديد من الأمر والطريف فى الموقف أن طاليس لم يلجأ إلى الدين ورجال الدين يستعين بهم على التغلب على صعوبته ، بل استخدم العقل وحده فى البحث عن الحلّ المنشود ، وهذه هى رسالته الكبرى التى وضعت أساس الفلسفة والعلم .

شرع طاليس يفكر فيما أمامه ويسائل نفسه ما هذا الكون العجيب ؟ ما هذه الصور المتعددة من ماء وهواء ونار وأرض ؟ هل اشتقت جميعاً من مادة واحدة ؟ وما هى هذه المادة الأولى ؟ وكيف تحوّلت إلى تلك الصور المختلفة ؟ وما هى العوامل المسئولة عن هذا التحول ؟

وليس فى مقدورنا أن نترسم الأدوار التى مرّ بها تفكيره ، ولكننا نعرف أن تفكيره قد قاده إلى أن كل شىء فى الكون ماء . وأن الماء هو مادة الوجود الأولى ، أما الهواء والتراب والنار فصور طارئة يتحول إليها الماء . وهذه الفكرة وليدة عدة ملاحظات عادية كتبخر الماء من ناحية وتحوله إلى جمد من الناحية الأخرى . ثم تجىء ملاحظة أخرى مألوفة ، وهى تراكم الطين عند مصاب الأنهار . فهذه كلها ظواهر قد توحى إلى من يتأملها أن الماء يتحول إلى أرض مرّة وإلى هواء مرّة أخرى . هذا إلى أنه من الواضح أن الماء يدخل فى تركيب النبات والحيوان ، وأنه لا بقاء لواحد منهما بدونه .

ولم ير طاليس فى تحول الماء إلى هواء وأرض ، وكل شىء آخر إلا عملية طبيعية بحتة ، وهذه نظرة علمية إلى مجرى الحوادث الكونية .

والواقع أن طاليس وفلاسفة يونيه كانوا يرون أن المادة حية تتحرك بذاتها ، وأن مصدر حركتها ليس أمراً خارجاً عنها ، بل الحركة خاصة من خواصها الطبيعية وقد أغناهم هذا عن الاستعانة فى تعليل الوجود بالأرواح والآلهة .

و بعد أن وضع طاليس هذه الأصول العامة فسر النظام الكونى تفسيراً طريفاً : فالأرض قرص مسطح طاف على سطح الماء ، وفوق رؤسنا أيضاً ماء و إلا فمن أين يأتى المطر ، أما الشمس والقمر والنجوم فبخار ملتهب .

وصل طاليس إلى هذه النتائج بالنظر العقلى ، وهو يقدمها على أساس أنها رأيه هو ، وأن دعامتها الأدلة وحدها فلمن شاء أن يقبلها إذا صحت عنده الأدلة ولمن شاء أن يرفضها غير متحرج إذا لم تصح .

ولم تلبث هذه الروح الجديدة أن انتقلت من طاليس إلى تلميذه انكسمندر فتقدم لعلاج هذه المعضلة الكبرى على منهاج أستاذه و بمثل شجاعته الأدبية . والرائع فى الموقف أنه لم ير نفسه مضطراً إلى قبول آراء طاليس ، ولم يستخلص من ذلك التراث سوى منهج البحث وروح النظر الحرّ .

فقد وضع نظرية جديدة ناقض فيها أستاذه فى الكثير من أصوله ونتائجه دون تردد أو مواربة ، ولوأنه خضع لنزعة التقليد لانطفأت هذه الشعلة الإنسانية فى الساعات الأولى من حياتها .

لم يقر انكسمندر أستاذه طاليس على أن المادة الأولى هى الماء حينما نهضت لديه الدلائل على ضعف هذه الفكرة ، وذهب إلى أن المادة الأولى ليست عنصراً من العناصر الأربعة المألوفة ، ولكنها شىء مبهم فى نوعه غير محدود فى مقداره سماه غير المحدود ، وعنه صدر كل ما فى الكون ومنه تكون كل

موجود بحركتى انفصال واجتماع طبيعيتين . ثم مضى يصف فى تفصيل شائق كيف أدّى ذلك إلى ظهور ما فى الوجود من كائنات . وهو وصف يدل على ثقة بالعقل واطمئنان إلى نتائجه مهما أبعد فى سيره وأغرب فى تأويله .

يرى انكسمندر أن الأضداد كانت فى البدء تجتمع فى هذه المادة الأولى مختلطة متداخلة . ففيها كان يلتقى الحار والبارد والرطب واليابس ثم انفصلت بحركة انفصال طبيعية واجتمع بعضها إلى بعض بمقادير متفاوتة ، فتكونت بذلك الأشياء ثم يأخذ فى تفصيل هذه النشأة ، فيقول : إن العناصر الأربعة التى يتكون منها الوجود كانت متجمعة طبقات بعضها فوق بعض . فكانت الأرض تحتل المركز ، لأنها أثقل الجميع وكان الماء يغطيها ويملؤه البخار . أما النار فكانت تحيط بالجميع . فأدت حرارة النار إلى تبخر الماء فظهرت اليابسة وتكاثر البخار ، فاشتد ضغطه فتمزق المحيط النارى وتناثرت أجزاؤه ، فأحاطت بها إسطوانات هوائية . فتكونت بذلك الكواكب ، فهى تلك النار التى تشتعل فى جوف الأنابيب وتبدو من فوهاتها . وما نراه من كسوف وخسوف ، ومن أوجه القمر سببه إما انسداد تلك الفوهات إنسداداً كليا أو جزئيا ، أو توارى الفوهة عن الأنظار بسبب حركة الأنبوبة الدائمة .

أما الاحياء : فقد تولدت فى طين البحر ، وهو مزاج من التراب والماء والهواء ، وكانت فى البدء سمكا مغطى بقشر شائك ثم انتقل بعضه إلى اليابسة ونفض عن نفسه القشر ، والإنسان أيضا سليل حيوانات مائية مختلفة عنه فى النوع حملته فى بطونها إلى أن تم تكوينه ، فاستطاع أن ينتقل إلى اليابسة ويعيش فوقها .

obeikandl.com

هذه الصورة التي تمثل نشأة الكون في رأي انكسمندر ، وهي صورة رائعة جريئة .

و إذا كانت روح البحث الحر والاستقلال من الموروث قد تملكت طاليس ثم انتقلت منه إلى انكسمندر فانها قد جاءت لتبقى وتنتقل من باحث لباحث . والواقع أن الذي حفظ شعلة البحث متقدة ، هو أن أولئك الباحثين لم يرثوا آراء ومذاهب ، وإنما ورثوا ما هو خير من ذلك ، ورثوا الاستقلال وحرية الفكر والاعتداد بالنفس . و إذا كان انكسمندر قد رفض مذهب أستاذه طاليس وأقدم على وضع مذهب جديد ، فان تلميذه انكسيمانس قد سلك الطريق نفسه فرفض مذهبه وأنشأ مذهباً جديداً .

ذهب انكسيمانس إلى أن المادة الأولى ليست كما رأى طاليس ، ولا غير المحدود كما قدر انكسمندر ، ولكنها الهواء ، وقد اعتمد في ذلك على أدلة يقدر مؤرخوا الفلسفة أنها ربما كانت ما رآه من أن الهواء ألطف من الماء ، وأنه أسرع حركة وأكثر في الأفق انتشاراً .

وتظهر عبقريته في تفسير تحول الهواء إلى ماء وأرض ونار ، فهو يلجأ في ذلك إلى فكرتي التخلخل والتكاثف ، فاذا تكاثف الهواء تولد السحاب فالمطر و إذا تكاثف الماء تكون التراب ، أما إذا تخلخل الهواء ، فالنار نتيجة هذا التخلخل .

هذه صفحة قصيرة رائعة تمثل الجو الجديد الذي نقصد الحديث عنه فقد كان جديداً أن نرى جو التقليد القائم يتحطم مرة واحدة و يتحرك العقل في رءوس بعض الأفراد و يتقدم معتزاً بنفسه على دراسة الكون وتفسيره فيمتلىء

الجو بالفروض الفلسفية المختلفة فى تحديد المادة الأولى ، وكيف انشعبت منها الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفى تفسير النظام الفلكى ، وظهور عالم الحياة وانتقاله من الماء إلى اليابسة ، وكلها نتائج لا تمتز بغير قوة الدليل ، ولا ترجع إلى سند سوى البرهان ، وأروع من كل ذلك أن يعتصم كل مفكر إزاء غيره بالاستقلال التام فيخالفه و يناقضه و ينتهى إلى غير نتائجه غير مبال أو متهيب .

ونظرة عجلى إلى سير هذا التاريخ تر بنا كيف استمرت هذه اليقظة الفكرية فتتابعت البحوث الفلسفية وظهرت سلسلة من كبار الفلاسفة الذين امتازوا بالاستقلال الفكرى والثقة بالنفس ، أمثال : هيرقليطس ، وأنكزاجوس ، وديموقريطس ، و بارمنيدس ، وزينو افيشاغورس ، ثم ظهرت تلك الشخصيات الخالدة الجبارة : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، فسلكوا طريق البحث الحر الذى اكتشفه طاليس وذلله انكسمندر وانكسيمانس وتعاورا جوانب الكون دراسة وتنقيبا وأورثوا العالم العلوم والفلسفة اليونانية التى قامت فى تاريخ الإنسان فى الشرق والغرب بدور خطير خالد .

ثم توارت تلك الفلسفة والعلوم حينا من الدهر ولكن لتعود إلى الظهور ويعود معها الاستقلال فى البحث والحرية الفكرية التى لازمتها فى اليونان القديمة وقد أخذ البحث الفكرى الجديد الذى بدأ فى عصر النهضة صورة جديدة فقسم العلماء الوجود مناطق واختصت كل طائفة منهم بمنطقة وعكف الجميع على البحث العلمى المتصل مستخدمين فى بحوثهم هذه أسلوبا جديداً لم تكن اليونان توليه ثقتها أو تركن إليه فى دراستها ، فبدلا من أن يستغرقوا فى كراسيهم يفكرون على هيئتهم فى النظام الفلكى والطبعى نجد العلماء فى مطالع فجر النهضة يذهبون إلى الطبيعة و يقفون أمامها محاولين أن يلمحوا من ثنايا خفى أسرارها

وغامض نواميسها بل نجدهم قد اخترعوا المجاهر وأحكموا وضعها فوق عيونهم وصوبوها إلى النظام الشمسى ليروا رأى العين كيف تتكون نجومه وكيف تسير فى مجاريها كواكبه .

وقد كانت ثمرة هذا كله أن الكون الذى بدا للانسان فى أيامه الأولى لغزاً غامضا لا يسبر غوره ولا يبدو أن فى مقدور العقل حله ، تغير حاله فأخذت نواميسه تبدو تباعا وينضم بعضها إلى بعض فى مجموعات متعددة كونت العلوم المختلفة التى تصف فى مجموعها نظام الكون وسير الحوادث فيه أو تحدد النظم السياسية والاقتصادية التى يجب أن تحكم المجتمع وحياة الإنسان .

والخلاصة أن العالم لم يعرف التفكير فى الكون بصورته المنظمة الدقيقة إلا منذ أن ظهر طاليس . فبظهوره ظهر التفكير الفلسفى والعلمى . وقد زاوله فى البداية أشراف اليونان فى ساعة فراغهم ، كما عنوا بتدريب أبنائهم على ممارسته . ولكنه منذ عصر النهضة أخذ يتحول صناعة خاصة يتفرغ لمباشرتها طائفة من الناس ويؤسس من أجلها دور خاصة . وواضح أن هذه الطائفة هى جماعة العلماء والفلاسفة الذين وقفوا حياتهم على البحث العلمى والفلسفى ، وأن هذه الدور هى الجامعات والمدارس المختلفة التى أنشئت لتدريب الناشئين على الدراسات العملية والفلسفية .

ومهما يكن من شىء فظهور التفكير قد بدد الخرافات التى كانت تشوه صورة الوجود فى أذهان الناس . كما أنه قد وضع فى يد البشر عدداً كبيراً من النواميس الطبيعية التى مكنتهم من إستخدام القوى الطبيعية والإنتفاع بها فى حياتهم المادية وغير المادية . هذا إلى أنه استطاع أن يكشف للناس عن النظم الاقتصادية

والإجتماعية والسياسية الصالحة لتشرئب أعناقهم إليها ويسير ركب البشرية متجها نحوها فينجو من الأغلال والاصفاد التى يرزح تحتها ويشقى بها .

ونستطيع أن نسمى هذا الذى حدث فى اليونان انقلابا وهو كالانقلابات السياسية وليد عوامل متعددة . وإذا كانت الانقلابات السياسية تترك وراءها فى حياة الأمم ، والشعوب مبادىء خالدة تصبح دعامة لحياتها الجديدة ، فهذا الانقلاب الفكرى قد أورث البشرية مبدأ من أسمى المبادىء ، وهو مبدأ التفكير الحر الذى وضع الأصول العلمية التى غيرت وجه الحياة الاقتصادية والصناعة كما وضع النظم السياسية والاجتماعية التى تعيش فى ظلالها الشعوب الحاضرة ، سعيدة مغتبطة .

من أجل هذا كان لابد لنا من دراسة هذا الانقلاب الكبير كما يدرس المؤرخون الانقلابات السياسية الكبرى ، وتتضمن هذه الدراسة تحليل الموقف إلى عوامله الكبرى ثم دراسة كل عامل منها على حدة .

الفصل الثانى

طبيعة التفكير

ما هو الجديد فى هذا كله ؟ لا بد لنا فى الجواب عن هذا السؤال من قدر كبير من الحيطة والتحرز . فليس الجديد عنصراً واحداً ولكنه عناصر متعددة بعضها واضح سافر و بعضها مستور غامض . ومن ثم كان من الضرورى أن ندرس هذا الجو الجديد دراسة صبر وأناة . حتى لا يفوتنا منه خفى خفائه أو يستبد بالعناية واضح لوضوحه .

وأول ما يبدو من معالم هذا الموقف المشتبك هو عملية التفكير التى قام بها طاليس وانكسمندر وانكسيمانس ومن جاء بعدهم ، والتى انتهت بهم إلى تلك النظريات الكونية الطريفة وما كان لمثل هذه العملية أن تخفى وقد سجلت كتب تاريخ الفلاسفة ظروفها وعناصرها ونتائجها ولكن قد تخفى عوامل أخرى مما يرافق فى العادة عملية التفكير أو يسبقها ، كالشك فى الموروث والتحرر من السلطة الدينية والاجتماعية التى تفرض على كل فرد فى المجتمع عقائد الشعب وشرائعه وآدابه ، ففى كل مجتمع بشرى سلطة من نوع ما تعضد عدداً من العقائد و تحمل الناس على قبولها والتسليم بها . وهى فى العادة سلطة رهيبة أو قد كانت كذلك فى العصور التاريخية القديمة حيث كان سيفها مصلتاً فوق الرقاب يلقى الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالتمرد أو الانتقاض على العقائد المتوارثة والشرائع العامة ، ولم تكن بلاد اليونان لعهد طاليس تختلف فى ذلك كثيراً عن غيرها من ممالك

العهد القديم ، ومع ذلك فقد أقدم طاليس على عملين محفوفين بالأخطار : أولها: الشك فى العقائد المتوارثة . وثانيهما : الانتقاض على هذه السلطة نفسها . فقد كان الناس فى تلك العصور يؤمنون بأن طريق المعرفة موصد أمام العقل البشرى وأن هذه السلطة هى مصدر العلم والمعرفة . فرفض طاليس هذه الفكرة وذهب إلى أن العقل البشرى قادر على أن يصل إلى الحقيقة فى المعضلات الكونية والعلمية وغيرها مما ألف الناس أن يتلقوا فيه وحى تلك السلطة وأوامرها . ولسنا نعنى أنه قد وضع فى هذا نظرية فلسفية دافع عنها ، ودعا الناس إليها ، وإنما نعنى أن إعراضه عن تلك السلطة حينما ساوره الشك ، وإقدامه على التفكير يتضمن بصورة قاطعة إيمانه بصحة هذا المبدأ وسلامته .

وليس هذا كل ما هنالك فان هذا الموقف ينطوى على مبادىء أخرى خطيرة منها إيمانه بأن لكل فرد الحق فى التفكير للوصول إلى الحقيقة فى كل ما يعترضه من مشاكل نظرية وعملية . ومنها شعوره بأن الكون لا تسوده الفوضى ولكنه يقوم على نظام دقيق شامل .

الموقف إذاً يتضمن عناصر كثيرة لا عنصراً واحداً فهو يتضمن :

١ — حالة الشك التى سبقت عملية التفكير .

٢ — ويتضمن رفض مبدأ الاعتماد على السلطة الخارجية فى حل المعضلات .

٣ — كما يتضمن الثقة بقدرة العقل على الكشف عن الحقيقة إذا أقدم على البحث وأقبل على التفكير .

٤ — وينطوى على الاعتقاد بأن الوجود ليس مجرد أشياء وضع بعضها

إلى جانب بعض ولكنه يمثل خطة شاملة ونظاما دقيقاً كاملا . وهذا النظام هو هدف البحث الفلسفى والنظر العلمى .

هناك إذاً إلى جانب عملية التفكير عناصر أخرى كثيرة متنوعة كلها جدير بالدرس . وسندرس كل واحدة منها دراسة خاصة فانه لابد لفهم طبيعة الفلسفة من دراسة هذه المبادىء كلها فكل واحد منها يمثل عنصراً من عناصرها أو ظرفا من الظروف التى لا يتم النظر الفلسفى بدونه أما الآن فسنبدأ بعملية التفكير نفسها فهى صميم الفلسفة وجوهرها . و إذا أردنا أن نتفهم طبيعتها فربما كان من أمثل الطرق وأعدلها أن نعود إلى ما ذكرناه عن الرعيل الأول من الفلاسفة والواقع أننا نستطيع بقليل من العناية والتأمل أن نبنى من اشتات المادة المأثورة عنهم صورة العملية النفسية التى قام بها كل منهم ولنبدأ بطاليس .

شك طاليس فى العقائد الموروثة التى حاولت تعليل الوجود فأصبح الكون منذ ذلك الحين معضلة غامضة بحاجة إلى تفسير جديد ولم تفته طبيعة معضلته ولا حدودها فقد نشأت من ظهور هذه الصور من ماء وهواء وأرض وحيوان ونبات ثم اختفاؤها فان ذلك يبدو كعملية تكوين تلبس فيها مادة مجهولة تلك الصور المتعددة تحت تأثير عوامل خفية . فما هى تلك المادة ؟ وكيف تتحول إلى تلك الصور ؟ المعضلة إذا واضحة والوجهة التى يجب أن يتجه إليها البحث غير خفية ومن ثم اتجه طاليس إلى البحث عن التعليل المطلوب فكان أول ما حدث أن استعاد من ذكرياته ما له صلة بتلك المعضلة . فاستعاد ما لاحظه من قبل من تحول الماء من ناحية إلى جمد وأرض ، ومن الناحية الأخرى إلى هواء . و إذا كانت هذه المرحلة لا تعدو أن تكون طور تذكر واسترجاع ومحاولات دون كشف أو ابتكار علمى فان المرحلة التى تليها هى المرحلة الهامة التى يثب فيها

العقل وثبته المنتظرة فيصل إلى العلم الجديد ففي تلك المرحلة تمر بالمفكر لحظة يزول فيها اللبس وينقشع الغموض وتظهر الفكرة الجديدة . وإذا كان طاليس قد استرجع من ذكرياته ما استرجع وحاول من صور التأليف بينها ما حاول فما كان ذلك إلا مقدمة للحظة التي أشرق فيها عقله بنور الفكرة الجديدة وهي أن الكون نشأ من ماء يستحيل مرة تراباً وأخرى هواء وناراً استحالة ذاتية غير خاضعة لمؤثر خارجي ، وقد مرت هذه اللحظة بانكسماندر حينما خطر له أنه هواء يتخلخل فيكون ناراً ويتكاثف فيكون ماء ثم يمضي في تكاثفه فيصير ترابا .

وواضح أن هذه الأفكار تتألف من عناصر مستمدة من التجارب التي استعادتها الذاكرة في الدور السابق . ففكرة طاليس في صورتها الكاملة تتألف من ملاحظة تحول الماء إلى جمد ويبس من ناحية وتحوله إلى هواء من الناحية الأخرى وكلاهما تجربتان سابقتان مستقلتان ضمت إحداهما إلى الأخرى فتكون من مجموعهما هذا الفرض الفلسفي .

هذه المرحلة إذاً مرحلة كشف وفيها يتم أمران خطيران أحدهما فكري والآخر وجداني ، أما الحادث الفكري الخطير ، فهو الوصول إلى فكرة جديدة تنقلب فيما بعد إذا أيدتها الأدلة ناموساً علمياً أو فلسفياً ثابتاً . فهناك لحظة سريعة يثب فيها إلى بؤرة الشعور خاطر جديد يزيل الشك ويوضح الموقف . وتعد هذه اللحظة جزءاً من تاريخ كل نظرية فلسفية ، أو ناموس علمي . أما الحادث الوجداني فهو ما يرافق ظهور الفكرة الجديدة من لذة وسرور ، بل نشوة وطرب في بعض الأحيان . وقد حفظ لنا التاريخ مثلا ممتازاً من ذلك ، فهو يحدثنا أن أرشميدس حينما وصل إلى حل معضلته كان يستحم في حوض مملوء بالماء . فنسي ما هو فيه وقفز حين تملكته هذه النشوة من الحوض وجعل يعدو في الطريق عارياً ، وهو

يصيح : « وجدته ! ! وجدته ! ! » ، وسواء أصح ما ذكره المؤرخون أم لم يصح فالأمر الذى لاشك فيه ، أن هناك لذة ساحرة لرؤية الحقائق الجديدة ، وأن كلا منا قد ساهم فى هذه اللذة بنصيب ، و بخاصة عند حل المسائل الرياضية الغامضة ، فى الهندسة والحساب .

والواقع أن هـــذه مراحل فى عمليـة التفـكير بوجه عام تدل عليه الدراسات النفسية الحديثة فعملية التفكير ذات مراحل متعددة متتالية : وأول مراحلها الشك الذى تتعرض له العقائد القائمة بسبب ظهور ما يناقضها من آراء ، أو ظهور صعوبة عملية تعترض سير العمل وتحول دون المضى فيه . فالرجل الذى يزاول عملا كائناً ما كان يمضى فى العادة فى طريقه موجهاً كل جهوده إلى عمله حتى تعترض سبيله صعوبة فيكف عن العمل و يتجه إلى التفـكير فى أسبابها ووسائل التغلب عليها ، فاذا تم له الـكشف عن ذلك كف عن التفكير وعاد إلى العمل من جديد . والرجل الذى يطمئن إلى صحة عقائده وآرائه ، لا يشعر بحاجة إلى التفكير فيها ، فاذا انتابه الشك فى بعضها شرع يفـكر ليزيل الشك و يعود إلى اليقين . والخطوة التالية فى عملية التفـكير هى تحديد المعضلة وذلك أن الصعوبة أو الشك يبدو فى أول أمره غامضاً مبهماً فلا يعرف مكان الصعوبة على نحو واضح دقيق ، ولا يظهر موضع الشك بصورة محددة بينة : ومن ثم نتجـه إلى تحديد مكان الصعوبة أو موضع الشك ثم إلى تحديد المعضلة التى أحسسنا بها تحديداً يدفع عنها اللبس و يزيل الإبهام ، أما المرحلة التالية ، فهى أخطر المراحل وأهمها فهى دور العمل الفكرى الإيجابى ، فاننا بعد تحديد موضع الصعوبة أو الشك نأخذ فى البحث عن الحل ونقوم فى أثناء ذلك بعمليات عقلية مختلفة . فنقوم فى البداية بعملية تذكر نستحضر بها التجارب الماضية ، وليس معنى ذلك أننا عند التفكير فى كل

معضلة تعرض لنا نستدعى كل ما لدينا من تجارب . فهذا عبث ومستحيل ، ولكننا نستدعى منها ماله صلة بالمعضلة التى نفكر فيها فقط أو مانتوهم أن له صلة بها ، وهى عملية تلقائية فى أغلب الأحيان . ومهما يكن من شىء فهى عملية استحضار لمعارف قديمة مختزنة لا كشف فيها عن علم جديد ، فهى إذا عملية تمهيدية فقط تقوم بها فى العادة الذاكرة . والذاكرة لا تأتى بجديد و إنما مهمتها استرجاع القديم

وليس هذا كل ما يحدث فى هذا الدور فبعد استرجاع التجارب السابقة تبدأ عملية الإنتاج والابتكار الحقيقية التى تنتهى بظهور الفرض . فان العقل يقوم شاعراً أو غير شاعر بعملية تركيب كثيراً ما تسبقها عملية تحليل . فهذه التجارب السابقه التى تم استحضارها لا تبقى مفرقة مشتتة و إنما يضم العقل بعضها إلى بعض و يصوغ منها صوراً شتى إلى أن يتم له تكوين الصورة التى يشعر بأنها الحل الصحيح ، و إذ ذاك تنتهى محاولاته وتتملكه نشوة الظفر . فى هذا الدور إذا تذكر وفيه محاولات وتجارب يقوم بها العقل فيما يستدعيه من المعلومات إلى أن يظهر له الحل الذى يرتاح إليه .

***

يشعر المصور فى أثناء عمله بأن تفصيلات الصورة التى يقوم بصنعها قد استغرقت انتباهه فأصبح لا يشعر إلا بها ، وأنه قد لها فى أثناء ذلك و بسببه عن شكل الصورة العام والجو المحيط بها فيضع الريشة جانبا و يتراجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين ليتسنى له أن يلقى نظرة شاملة على الموقف كله ، على الصورة وعلى محيطها وكل ما يتصل بها ، ذلك لأنه يشعر بأن هذه النظرة ضرورية لرؤية الأخطاء التفصيلية وقيادة الأعمال المقبلة . وفى رأيى أن هذا ضرورى للمؤلف أيضاً فاذا ما أحس بأن صورة الموضوع

العامة قد توارت عنه . وأن التفصيلات قد استبدت بانتباهه فلم تترك منه لغيرها نصيبا كان عليه أن يلقى القلم و يتراجع خطوة أو خطوتين ليتسنى له أن يرى الموضوع فى صورته العامة فهذه النظرية خير عون له على أن يسوس مادته فى أثناء عرضه لها سياسة ناجحة وأظننى الآن فى موقف يحسن أن أقوم فيه بذلك .

***

ونحن إذا ألقينا نظرة شاملة على موضوعنا هذا كان فى استطاعتنا أن ندرك بوضوح طبيعة عملية التفكير والدور الذى يتم فيه رؤية الحل وأن نقدر ذلك حق تقديره .

ليس الشك ولا تذكر المعلومات السابقة إلا أعمالا تمهيدية للخطوة الأساسية فى تلك العملية وأعنى بها رؤية الحقيقة الجديدة فهذه الرؤية هى التى تضيف إلى معلوماتنا علما جديدا وتزيد الثروة الفكرية للشعوب البشرية . ويتضح معنى هذا إذا تذكرنا أن جميع القوانين العلمية قد مرت بهذا الدور فقد كانت جميعا خفية إلى أن عثر عليها العلماء فى أثناء بحثهم وتفكيرهم والمهم من الأمر أن العقل البشرى فى ساعة ظهور الحل يقوم فعلا بعملية ادراك يصل بها إلى الجديد وأن الذى يدركه فى تلك الساعات هو النواميس الكونية . وهى جانب من الكون غامض خفى ينكشف فى تلك اللحظات الخطيرة .

والكون يتألف من جزئيات كأفراد فصائل النبات والحيوان والجماد والشمس والقمر والنجوم ومن روابط تربط بينها وتؤلف منها وحدات كرابطة التجاذب بين الأجسام ورابطة التمدد بين الحرارة والمعادن وغير ذلك من الروابط العلمية التى لاعدد لها والادراك الكامل للكون كله لايتم إلا بادراك الجزئيات وما بينها من روابط وعلاقات بل لاتتم معرفة الوجود إلا إذا عثرنا على شبكة النسب

والعلاقات التي تربط كل شيء فيه بعضه ببعض . أما الجزئيات فتدرك بالحس ويتم هذا الإدراك دون محاولة أو مجهود بل الواقع أنها تفرض نفسها علينا فرضا . فيكفي أن يفتح الإنسان عينيه لتهاجم حسه صور ما حوله من نبات وحيوان وإنسان ومنازل وأثاث ونحو ذلك . أما النسب والعلاقات فخفية غامضة لا تدركها حاسة من الحواس . وقد عاشت البشرية قرونا دون أن تدرك تجاذب الأجسام مثلا أو أن الحرارة تمدد المعادن ونحو ذلك من النواميس العلمية لأن الحواس لا تقع على هذه النسب والروابط فنحن نرى الأجسام ولا نرى التجاذب وكذلك الحال بالنسبة للنواميس العلمية المختلفة . ولكننا ندركها بقوة أخرى هي العقل أو الذكاء فهو الذي يحس بالتجاذب ويشعر به فتلك خاصته ومهمته الطبيعية ومن كان أوفر حظا منه كان أقدر على إدراك هذه النسب . الكون إذا يتألف من جزئيات ونسب ، فالحس يدرك الجزئيات والعقل أو الذكاء يدرك النسب وبذا يتم ادراك الكون . وندرك هذه النسب أحيانا عند رؤية الطرفين مباشرة . فنحن عند رؤية الأهرام لأول مرة نشعر بمجرد رؤيتها بأن الهرم الأكبر أكبر من الثاني . ندرك هذه النسبة في الحال بمجرد أن يقع البصر على الهرمين المذكورين جاثمين فوق الرمال جنبا إلى جنب ولكننا في كثير من الأحوال لا ندرك النسب إلا بعد تفكير طويل يبدأ بصعوبة أو شك يتلوه جمع للمعلومات القديمة المتصلة بالموضوع ثم يحدث فجأة أن نرى النسبة أو القانون الذي نبحث عنه . هذه العملية اذا عملية ادراك يكشف عن ناحية مهمة من الكون وهي ناحية الروابط والنسب التي تقوم بين جزئياته وكلياته . وعمل العلماء في الواقع ضرب من الرؤية لهذه الناحية الخفية من هذا الوجود الغامض . وهم بمثابرتهم على البحث قد استطاعوا أن يروا كثيراً من تلك النواميس الكونية التي تفوت العد ولا يزالون يواصلون عملهم المجيد ويزيدوننا بهذا الكون علما ومعرفة . ولكن التفكير العلمي الصحيح لا يقف عند حد ظهور الفكرة الجديدة

ورؤية القانون الكونى الغامض . فإنه لا ضمان فى مجرد الرؤية لصحة الفكرة فمن الممكن أن تكون الفكرة مخطئة والرؤية غير صادقة . ولهذا كان من تقاليد التفكير العلمى التريث فى هذا الموقف . فالعلماء لا يؤمنون بالفكرة الجديدة عند خطورها ولكن يأخذونها كاحتمال فقط ويسمونها من أجل ذلك فرضا لا ناموسا علميا ولا يرفعونها الى مرتبة القانون العلمى الا بعد أن تمر بامتحان دقيق . وتسمى هذه المرحلة مرحلة التحقيق العلمى . ولا بد لنا من شرح طبيعتها بشىء من التبسط

التحقيق العلمى اسم يطابق مسماه فهو عملية تحقيق حقيقية . يقوم بها الباحث نفسه ازاء الفكرة الجديدة التى خطرت له بعد تفكير طويل أو قصير وتبدأ كل تحقيق باتهام هذه الفكرة الجديدة والشك فى صحتها ثم يتلو ذلك البحث عن الأدلة التى تثبت صحتها وتؤيد قضيتها مع الاستعداد التام لقبول الشواهد التى قد تكذبها وتنفى صحتها . ولا نريد هنا أن ندرس أنواع الأدلة التى يعتمد عليها العلماء فى إثبات ما يعن لهم من فروض علمية دراسة تفصيلية مستفيضة . فإن هذا يقطعنا عما نقصد إليه ولكننا لا نرى مع ذلك بدا من عرضها فى صورتها العامة مجتزئين بالإجمال عن التفصيل .

تثبت الفروض العلمية بأسلوبين : الأسلوب الرياضى والأسلوب الاستقرائى أما الأسلوب الرياضى فلا يتقاضى الباحث العلمى إلا أن يثبت أن هذا الفرض الذى وصل إليه بتفكيره نتيجة منطقية لقضية بديهية . والمثل الأعلى لهذا النوع من التحقيق هو الرياضة وتعطينا الهندسة منه أوضح الأمثلة وأدقها فان النظريات الهندسية تتفرع جميعا من عدد من البديهيات تنتهى إليها وتستمد منها صحتها . ولكن لا يجوز أن يذهب الظن بنا إلى أن التفكير الرياضى يختلف عن التفكير فى العلوم الطبيعية العادية . فمعالم عملية التفكير واحدة فى الحالين ، وإنما يختلف

نوع الإثبات فقط فالتفكير الرياضى تثيره الصعوبات والشكوك وغير ذلك وينتهى برؤية قاعدة جديدة تقرر نسبة كانت إلى ذلك الحين غير معروفة ثم يتلو ذلك دور التحقيق العلمى . فمثلا إذا رجعنا إلى نشأة نظرية كالنظرية التى تقرر أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان ، كان لنا أن نتوقع أن هذه الفكرة خطرت للباحث أولا ثم أعقبتها عملية التحقيق العلمى التى أدت إلى إثباتها وقد يكون هذا الفرض نتيجة نظرة إلى خطين متقاطعين ومقارنة الزاويتين المتقابلتين بالرأس فى الشكل المذكور . فمثل هذه المقارنة جديرة بأن توحى بهذه الفكرة وتفضى إلى رؤية هذه النسبة . ولكن الباحث العلمى هنا كالباحث فى العلوم الطبيعية لا يبادر إلى قبول هذه الفكرة والإيمان بها بل يحاول تحقيقها وما هو إلا أن يشرع فى ذلك حتى ينتهى بعد تفكير طويل أو قصير إلى أنها نتيجة منطقية للنظرية الأولى التى تقرر أنه إذا وقع مستقيم على آخر كانت الزاويتان الحادثتان مساويتين لزاويتين قائمتين . والنظرية الأولى نفسها نتيجة لبديهية المساواة التى تقرر أن المساويين لثالث متساويان . ومن ثم تكون نظرية الزاويتين المتقابلتين بالرأس هى نفسها نتيجة لبديهية المساواة ترجع إليها وتستمد منها الصحة والصدق .

هذا نموذج للتحقيق العلمى فى الرياضة وأساسه أن القضايا البديهية صحيحة صادقة بل لا يتصور العقل كذبها وأنها تضفى ما تتمتع به من صحة وصدق على جميع نتائجها المنطقية فبديهيات الرياضة مثلا تمد رواق الصحة لا على نفسها فقط ولكن على كل ما ينتج منها من قضايا بالغا ما بلغ عددها . فيكفى إذا أن نثبت أن فرضا علميا يتصل ببديهية من البديهيات اتصال النتيجة بالمقدمة حتى يزول كل شك فى صحته ويصبح ناموسا علميا ثابتا . وذلك لأنه لا شك فى صحة البديهيات ولا مفر لنتائجها من أن تتمتع بهذه الصحة أيضا . هذا النوع من الاثبات

إذا يحدث فى مرحلة التحقيق العلمى فى التفكير الرياضى وهو أقوى أنواع الإثبات من الناحية النظرية وكل منا يذكر ما كان يحسه أثناء دراسته من قوة البرهان الرياضى ومتانته .

والواقع أن الفلاسفة منذ أقدم العصور قد عرفوا ما لهذا البرهان من قوة وعدوه المثل الأعلى للأدلة العلمية . وخيل إلى بعضهم أنه قد يكون من الممكن الوصول إلى مثل هذه البراهين لا فى الرياضة وحدها ولكن فى جميع المباحث العلمية كالعلوم الطبيعية مثلا . ومهما يكن من شىء فقد اتخذ منه الفلاسفة شاعرين أو غير شاعرين نموذجا يحاكونه فى الدراسات الفلسفية . وقد كان ديكارت أول من حاول ذلك محاولة قائمة على دراسة دقيقة فقد كان هو نفسه رياضيا بارعا ومن الطبيعى لمن عانى الرياضة أن يشعر بما يمتاز به البرهان الرياضى من قوة ووضوح وأن يفكر إذا ما اتجه إلى دراسة أخرى فى نقل أسلوب الدراسة الرياضية إليها . والواقع أن ديكارت حينما اتجه إلى الفلسفة وأحس أن بناء الفلسفة القديمة بناء منهار لم يلبث أن عزا ذلك إلى عجز أسلوب النظر الفلسفى عن أن يصل بالباحثين إلى مثل اليقين الذى يصل إليه فى الرياضة . وخيل إليه أننا إذا استخدمنا الأسلوب الرياضى فى الدراسات الفلسفية أمكننا أن نصل هنا كما نصل هناك إلى نتائج فلسفية يقينية . فتجرد لتحديد أصول البرهان الرياضى وليس من الممكن أن ندخل هنا فى دراسة تفصيلية لجهود ديكارت فى هذا الميدان ولهذا فسنجتزىء بالصورة العامة للبرهان الرياضى كما يراه ديكارت .

يرى ديكارت أن أساس البرهان الرياضى يجب أن يطلب فى بديهات الرياضة التى يستنبط منها ما سواها وفى الصلة القائمة بين تلك البديهات ونتائجها وأخص صفات البديهات هو الوضوح فنحن نرى صدقها مباشرة ونراه بوضوح

تام وحسبك أن تتذكر بديهية المساواة التى تنص على أن المساويين لثالث متساويان لترى مدى ما تتمتع به هذه البديهيات من وضوح تام يدفعنا فى الحال إلى قبولها والإيمان بها . ووضوح القضية يتفاوت فى درجته فكثير من النظريات الأخلاقية واضحة ولكن هذا الوضوح يبلغ أقصى مداه فى بديهيات الرياضة . ولا يقتصر الوضوح على البديهيات فقط فالبرهان الرياضى يتألف من هذه البديهيات ونتائجها والصلة بينها و بين نتائجها واضحة بل شديدة الوضوح . ومن ثم نستطيع أن نقول أن كل ما نحتاج إليه لنصل بالفلسفة إلى درجة الثبوت الذى تتمتع به الرياضيات هو أن نسلك السبيل نفسه : فنبدأ ببديهيات واضحة الصحة بحيث لا يخالجنا فى صدقها أى شك ثم نستنبط منها نتائجها على شريطة أن تكون الصلة بين المقدمات والنتائج واضحة أيضا بحيث لا يكون ثمة مجال للشك فى ضعف الصلة أو غموضها . وظن ديكارت أن الوصول إلى البديهيات ممكن فى الفلسفة كما أمكن فى الرياضة وأن الأمر لا يتقاضانا إلا عملية تحليل تنتهى بنا إلى البسيط من الأفكار فاذا بنا نرى العلاقات بين هذه الأفكار البسيطة واضحة جلية . و إذا بنا قد حصلنا على البديهيات المطلوبة والواقع أن ديكارت بعد أن استخلص ما ظنه الصورة العامة للبرهان الرياضى شرع يستخدمه فى تفكيره الفلسفى فحاول العثور على بديهية فلما ظن أنه قد حصل عليها طفق يستنبط منها ما سماه نتائجها .

هناك إذا نوع خاص من الإثبات يتألف من البديهيات ونتائجها وأساسه الرؤية الواضحة للصدق والصحة لا فى البديهيات وحدها ولكن فى الصلة التى تربطها بنتائجها وهو الأسلوب الذى يستخدم فى الفلسفة منذ عهد بعيد . التحقق العلمى إذا قد يأخذ صورة البرهان الرياضى فيرجع بالقضية إلى بديهية من البديهيات

وقد يأخذ صورة أخرى مخالفة والواقع أن التحقيق العلمى فى العلوم الطبيعية كعلم الطبيعة والكيمياء يختلف عما يحدث فى الرياضيات . فالفروض العلمية الطبيعية تقرر صلة السببية بين الظواهر كالفرض الذى يقرر أن الحرارة تمدد الأجسام وكالفروض الطبية المختلفة وتحقيق هذه الفروض يسلك طرقا مختلفة نكتفى بالاشارة إلى بعض صورها . من ذلك أننا قد نفترض عند البحث عن سبب إحدى الظواهر الطبيعية أن عاملا ماهو سبب تلك الظاهره ثم نبحث عن إثبات علمى لهذا الفرض فنجده فى عدد من الحالات التى تظهر فيها تلك الظاهرة تحت ظروف خاصة نجملها فيما يأتى :

١ — تظهر تلك الظاهرة فى جميع تلك الحالات دون استثناء .

٢ — وتقترن فى هذه الحالات بعوامل كثيرة مختلفة لا بعامل واحد .

٣ — تظهر بعض تلك العوامل فى بعض الحالات وتختفى فى بعض .

٤ — ما عدا عاملا واحداً فانه يظهر فى جميع تلك الحالات .

فمن الواضح أن العوامل التى تظهر فى حالات وتختفى فى أخرى لا يمكن أن تكون هى الأسباب الطبيعية لتلك الظاهرة، أما العامل الذى يظهر فى جميعها فهو الذى يعده الباحثون السبب المسئول عن الظاهرة المذكورة فاذا اتفق أن هذا العامل هو نفسه الفرض الذى تحاول تحقيقه عد ذلك إثباتا كافيا لصحته . ويسمى هذا الأسلوب بطريقه الاتفاق . وقد تعرض لنا حالتان أو أكثر تتوافر فيهما الشروط الخاصة الآتية :

١ — أن الحالتين متماثلتان فى كل الظروف

٢ — سوى أن الظاهرة التى ندرسها ونحاول معرفة سببها تظهر فى إحدى الحالتين مقترنة بعامل خاص وتختفى فى الحاله الأخرى ويختفى معها هذا العامل

ودلالة هاتين الحالتين واضحة فاختفاء العامل مع اختفاء الظاهرة وعودته إذا عادت إلى الظهور دليل واضح على ارتباطهما برابطة السببية . فاذا اتفق أن هذا العامل هو الفرض الذى وصلنا إليه ونحاول تحقيقه كان ذلك إثباتا كافيا لما توقعناه من أنه سبب الظاهرة ومصدر وجودها . وقد توجد إحدى الحالتين فقط فى الطبيعة فنوجد نحن الأخرى فكثيراً ما يتبادر إلى ذهن بعض الأطباء أن مكروبا خاصا هو سبب مرض من الأمراض فيعمد إلى حيوان خال من المرض ومن المكروب فيحقنه بالمكروب فاذا ظهر المرض كان ذلك إثباتا لصحة الفرض فان هنا حالتين أمدتنا باحداهما الطبيعة وهى الحيوان الخالى من المرض والمكروب معاً أما الحالة الثانية فقد كوناها نحن وهى حالة الحيوان نفسه بعد الحقنة وظهور المرض ، ولا فارق بين الحالتين إلا اختفاء المرض والمكروب فى واحدة وظهور المرض والمكروب فى الثانية ، وتسمى هذه الطريقة بطريقة الاختلاف و يتكون الإثبات فى هذه الطرق من أمرين :

١ — أولهما الحالات الثابتة بالمشاهدة ، كحالتى الحيوان فى الصحة والمرض .

٢ — دلالة الحالات المذكورة ، فمن البين أن حالتى الحيوان المذكور تدلان دلالة واضحة على أن المكروب سبب المرض

أساس الإثبات هنا إذا هو الحالات الجزئية المحسوسة من ناحية ودلالة تلك الحالات من الناحية الأخرى ، أما التحقيق الرياضى فيقوم على أساس البديهيات من ناحية ودلالتها على الفروض من ناحية أخرى .

ويمكن أن يقال بالإجمال أن حجر الأساس فى الإثبات العلمى الرياضى والطبيعى هو القضايا الثابتة بالحس أو بالبداهة ولكن هذه القضايا لا تعدو أن

تكون حجر الأساس فقط أما العنصر الثانى الهام فهو دلالة تلك القضايا دلالة قاطعة على صحة تلك الفروض . وإنما يتم ذلك إذا أثبت أن تلك الفروض نتائج منطقية لتلك القضايا البديهية أو الحسية ، ففروض الرياضة تثبت ثبوتا قاطعا إذا اتضح أنها نتائج منطقية للبديهيات الرياضية والفروض الطبيعية تثبت أيضا متى ماظهر أنها نتائج منطقية للقضايا التجريبية ، فالمكروب الذى نفترض أنه سبب لمرض ما يثبت بمجرد أن نحقن به حيوانا سليما فتظهر عليه أعراض المرض . لأن هذا الفرض نتيجة منطقية واضحة للحالتين المذكورتين ، فلا يكاد الإنسان يراهما حتى تدفعه هذه الرؤية إلى الاعتقاد بأن هذا المكروب سبب هذا المرض وتسمى الطريقة الرياضية التى تبدأ من البديهيات بالاستنباط أما الطرق التى تبدأ من القضايا الحسية فاسمها العام هو الاستقراء ولا تضارب بين الطريقتين . ومن العلوم ما نشأ نشأة استقرائية ثم أصبح علما استنباطيا كالرياضة فقد كان قدماء المصريين يعرفون كثيرا من النواميس الرياضية ولكن بالأسلوب الاستقرائى ثم صارت علما استنباطيا ، ونستطيع أن نفهم ما حدث إذا تذكرنا أن موضوع الدراسة فى الرياضة هى الأشكال المنتظمة وهى أمور محسوسة يمكننا إذا أردنا أن نعرف خصائصها ونواميسها العامة أن نبنى على أساس الحس أو على أساس القضايا البديهية العقلية . فيمكننا مثلا إذا خطر لنا أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان أن نسلك فى إثبات هذا الفرض كلا من الطريقتين المذكورتين فمن الميسور أن نرسم صوراً مختلفة تمثل زاويتين متقابلتين بالرأس ثم نقيس الزاويتين المتقابلتين فى كل صورة من تلك الصور فسنجد أنهما متساويتان فى جميع تلك الصور وإذ ذاك يثبت الفرض ولكن بطريقة استقرائية ويمكن من الناحية الأخرى أن نرجع بالفرض المذكور إلى بديهية المساواة فنجد أنه نتيجة منطقية لها .

الرياضة إذاً كعلم الطبيعة أو الكيمياء يمكن أن تكون وليدة التجارب الحسية وقد بدأت حياتها كذلك ولكنها لم تلبث أن غيرت طريقها وسلكت إلى إثبات نظرياتها طريقا آخر وهو الطريق الاستنباطى ، وهذا ممكن فى الرياضة لا فى العلوم الطبيعية ، وسبب هذا أن قضايا الرياضة تختلف فى طبيعتها عن قضايا العلوم الطبيعية أو الكيمياء فهى مثلا قد تقرر نسبة بين طرفين كما تقرر القضايا الرياضية ولكنها نسبة ممكنة لا ضرورية فالقانون الذى يقرر أن الحرارة تمدد المعادن يقرر نسبة ممكنة فمن الجائز عقلا ألا تؤثر الحرارة فى الأجسام هذا التأثير وقد كان القدماء فعلا لا يظنون أن الحرارة تفعل فى المعادن هذا الفعل هذه إذا نسبة ممكنة فمن الجائز عقلا أن يقع الأمر على هذا النحو أو ذاك وفى مثل هذه الحالة لابد لنا من الرجوع إلى الواقع المحسوس ليفصل فى الموقف على نحو ما ، إذ أن العقل وحده لا يستطيع أن يقضى فيه بسلب أو إيجاب . ولهذا فلا مفر لنا فى إثبات هذا النوع من القضايا من أن نرجع بالقضية إلى الواقع لنرى كيف يفصل فى أمرها ، ومتى خطر لنا فرض فى العلوم الطبيعية ، تذكرنا فى الحال أنه يقرر نسبة ممكنة وأنه لا يجوز الوثوق به إلا بعد اختباره اختباراً عمليا وهذا الاختبار يتطلب الرجوع إلى الواقع واستعراض الحالات التى تؤيد الفرض إن كان ثمة شىء منها ثم ملاحظتها وقراءة دلالتها على النحو السابق الذكر ، أما قضايا الرياضة فتقرر نسبا ضرورية لا ممكنة كالقضية التى تقرر أن المساويين لثالث متساويان ، فان المساواة بين شيئين كل منهما مساو لثالث نسبة ضرورية لا ممكنة فاذا صح أن كل منهما مساو لثالث كان حتما أن يكونا متساويين واستحالا عقلا أن يكونا متفاوتين ، ويكفى فى القضايا الضرورية أن نتصور الطرفين لنحكم بصحة القضية وبأنها ضرورية فمثلا يكفى أن نتصور الكل والجزء لنحكم بدون تردد أن الكل

أكبر من الجزء ، وأن هذه نسبة ضرورية ، وأن نقيضها مستحيل . فليس من الممكن عقلا أن يتساوى الكل وجزؤه ، أو أن يكون الجزء أكبر من الكل ، والنقطة الهامة هنا هو أنه يكفى أن نتصور الطرفين لنحكم بصحة النسبة ونشعر بأننا فى غير حاجة إلى الرجوع إلى الواقع . أما قضايا العلوم الطبيعية : فتصور الطرفين لا يعيننا على رؤية النسبة ، فتصور الحرارة والمعادن لا يكفى لتقرير أن الحرارة تمدد المعادن ، ولا بد هنا من الرجوع إلى الواقع المحسوس ليشهد للقضية أو عليها .

هناك اذا قضايا بديهية واضحة ، لا يكاد المرء يتصورها حتى يقضى بصحتها وضرورتها واستحالة نقيضها ، ويشعر بأنه فى غير حاجة إلى الرجوع إلى الحقائق الخارجية ليتخذ منها دعامة لها ، وهذا النوع من العلم يمتاز بأنه يقينى لا سبيل إلى الشك فيه . أما العلوم الطبيعية الإستقرائية : فليس من الممكن أن ترقى إلى مرتبة هذه العلوم فى قوة الثبوت ودرجة اليقين ، وكل أفق علمى نعثر فيه على هذا النوع من القضايا البديهية الضرورية ينقلب العلم الخاص به علما ضروريا تقرر نواميسه دون رجوع إلى عالم الحس ، ومن غير حاجة إلى القيام بتجارب عملية ، وهذا ما حدث فى الرياضة . فقد أمكن أن نعثر فى ميدان الرياضة على بديهيات وأن نستنبط منها نتائجها ، ونصل بذلك إلى علم يقينى ، لا يداخلنا فى سلامته شك أو ارتياب . فقد ردت الأشكال الهندسية إلى بسائط من نقطة وخط وزاوية وسطح ، وعثر الباحثون على عدد من البديهيات ، منها : بديهية المساواة سابقة الذكر ، فكانت النتيجة أن تحولت الرياضة إلى علم نظرى دعامته عدد من البديهيات التى تفرعت منها نظريات الهندسة المختلفة . فنظرية المساواة سالفة الذكر هى أساس النظرية الهندسية الأولى التى تقرر أن الزاويتين

الحادثتين من سقوط مستقيم على آخر مساويتان لزاويتين قائمتين ، وهذه بدورها أساس النظرية التي تقرر أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان ، وهلم جرا فمن هذه البديهية تفرعت النظريات الهندسية الأخرى كنتائج منطقية لها ، فتحولت الرياضة بهذا من علم إستقرائى يعتمد على الحس والتجارب ويقوم على امتحان الواقع وملاحظته إلى علم نظرى ضرورى يقرر ما يقرر فى معزل تام عن الحس والمحسوسات ، وقد تم ذلك فى فجر الفلسفة الاغريقية ، وأكبر الظن أن الذى قام بذلك هو طاليس نفسه واضع أساس الفلسفة .

وقد خيل لبعض الفلاسفة ، متأثرين بما قد تم فى الرياضة أنه ربما كان من الممكن أن تنقلب العلوم الطبيعية فى يوم من الأيام علوماً نظرية . وأشار بعضهم إلى أننا إذا اتبعنا فى العلوم الطبيعية ما اتبعناه فى الرياضة ، فقد نحصل على نفس النتيجة . وذلك أننا حينما حللنا الأشكال الهندسية إلى بسائطها من نقطة وخط وزاوية ، ثم اعتمدنا بعد ذلك على قضايا أولية ، كبديهية المساواة استطعنا أن نصل إلى النظريات الأولى ، وأن نترقى منها إلى النظريات الأخرى التي نستند اليها ، وانتقل علم الهندسة فصار علما نظريا بعد أن كان علما تجريبيا أفليس من الجائز أن يحدث مثل هذا فى العلوم الطبيعية إذا اتبعنا الأسلوب نفسه فحللنا قضاياها وكلياتها إلى بسائطها وتحسسنا ما بينهما من نسب حتى نصل إلى بديهيات تقرر نسبا ضرورية أولية ، ثم جعلنا بعد ذلك نستنبط منها نتائجها المنطقية ، ولكن هذا الحلم الفلسفى لم يتحقق إلى الآن .

وسبب ذلك هو الاختلاف بين موضوع الدراسات الطبيعية ، وموضوع العلوم الرياضية ، فالطبيعة التي تدرسها العلوم الطبيعية لا تسمح بالقضايا البديهية . أما

موضوع الرياضة ، وهو المقادير فيسمح بها ، فيمكننا مثلا أن نقرر أن المساويين لثالث متساويان ، وأن الكل أكبر من الجزء ، يمكننا أن نقرر هذه القضايا وأشباهها دون رجوع إلى الطبيعة لمشاهدتها واستفتائها ، وهذه البديهيات هى أساس النواميس الرياضية والدعامة التى تستند إليها ، وما النواميس الرياضية إلا النتائج المنطقية التى تستمد من هذه البديهيات . وهذا فى الواقع هو التحقيق العلمى فى الرياضة . ففروض الرياضة كغيرها من الفروض الفلسفية والعلمية ، قد تنشأ بعملية تفكير مركبة ، أو بخاطر مفاجىء ، ولكنها تحقق بأسلوب يخالف الأسلوب المتبع فى تحقيق الفروض الطبيعية ، وأساسه محاولة اكتشاف الصلة المنطقية بين الفرض ، وبديهيات الرياضة أو نظرياتها الثابتة من قبل ثبوتاً قائماً على أساس تلك الصلة نفسها . ومهما يكن من شىء فأسلوب التحقيق هنا يخالف أسلوب التحقيق فى العلوم الطبيعية مخالفة واضحة . فنحن لا نرجع هنا إلى الطبيعة ، ولا نستفتى عالم الحس ، وإنما نرجع إلى البديهيات وحدها ، ونعد ذلك إثباتاً كافياً مغنياً عن كل ما سواه ، ويسمى أسلوب العلوم الطبيعية بأسلوب الاستقراء كما يسمى الرياضى بأسلوب الاستنباط .

ويتوقف استعمال هذا أو ذاك فى البحث على طبيعة المادة التي ندرسها وهنا لا بد من التنبيه على الحقائق الهامة الآتية :

١ ــ من الواضح : أن أسلوب الاستقراء لا يمكن أن يستخدم إلا فى دراسة الموضوعات التى يمكن مشاهدتها بالحس الظاهر أو الباطن ، وتلك هى الظواهر الطبيعية المادية والنفسية ، فالظواهر الطبيعية المادية كالتمدد مثلا تدرك بالحس الظاهر . أما الظواهر النفسية ، كالتفكير والتخيل واللذة والألم فانها تدرك بالحس الباطن ، ويمكن أن نلاحظها ملاحظة باطنية ، ومن ثم أمكن أن ندرس هذه

وتلك بأسلوب الاستقراء الذى يعتمد على الحس الظاهر أو الباطن . فظاهرة تمدد المعادن بالحرارة مثلا تدرس بالاستقراء ، وأكبر الظن أن هذه الفكرة قد خطرت للباحث تحت تأثير ملاحظات حسية عابرة كتمدد الماء فى إناء فى قدر فوق نار موقدة ، فسلك فى تحقيقها طريقا من طرق التحقيق الاستقرائى المعروفة كأن يقيس قضيباً معدنيا ثم يسلط عليه الحرارة مدة من الزمن و يقيسه للمرة الثانية ، فيكتشف أنه قد تمدد ، ويرى فى ذلك إثباتا للفرض الذى افترضه من قبل ، وهو أن الحرارة تمدد الأجسام ، وذلك لأن الموقف يحتوى على حالتين متماثلتين ، تخلو إحداهما من الظاهرة والفرض المفترض لتعليلها ، وهى حالة القضيب المعدنى قبل أن يتسلط عليه الحرارة . أما الثانية : فتحتوى على الظاهرة وهى التمدد والفرض المذكور ، وتلك هى حالة المعدن بعد أن سلطت عليه الحرارة .

والمهم من الأمر : أن طريقة الاستقراء أمكنت هنا لأن التمدد ظاهرة طبيعية محسوسة يمكن أن توحى بها الملاحظات الحسية ، و يمكن أن تختبر صحتها بالتجارب الحسية .

٢ — ولكن الطبيعة تنقسم قسمين : قسم يمكن أن يدرس بالاستقراء وحده وهو القسم الذى لا يمكننا أن نصل فيه إلى قضايا بديهية تصلح دعامة للاستنباط العقلى ، فان هذا القسم لا يمكن أن يدرس بالاستنباط ، ولا مفر من الاعتماد على الاستقراء وحده فى دراسته ، وهذا القسم هو الموضوعات التى تدرسها علوم الكيمياء والطبيعة والبيولوجى وعلم النفس ، وسواه ، و إلى جانبه يوجد قسم آخر يمكن أن يدرس بالاستقراء والاستنباط معا ، وذلك لأنه محسوس ، فيمكن

استخدام الأسلوب الاستقرائى فى دراسته ، ولكنه من ناحية أخرى يسمح بالقضايا البديهية الضرورية للتفكير الاستنباطى ، وذلك كالأشكال الهندسية ، ونتائج الطريقتين متطابقة ، فالاستقراء والاستنباط مثلا يفضيان إلى نتيجة واحدة فى دراسة الزاويتين المتقابلتين بالرأس ، فكل من الطريقتين تنتهى إلى أنهما متساويتان ، وكذلك الحال فى مقدار زوايا المثلث ، وغير ذلك .

٣ — ولكن الكون أوسع من الطبيعة ، فالمفروض أن الطبيعة هى القسم البادى من الوجود ، وأن وراءها أسس الكون ودعائمه ، فوراء الظواهر المادية جوهر المادة نفسه ، ووراء الظواهر النفسية جوهر العقل ، ووراء عالم المادة والعقل مصدر الوجود وسببه الأعلى . والطبيعة المادية والعقلية ظاهرة مكشوفة ، لايحجبها عنا شىء ، ومن ثم تسنى لنا أن ندرسها بالأسلوب الاستقرائى التجريبى الذى يعتمد على الملاحظة الحسية والباطنية . أما ماوراء الطبيعة : فهو فوق متناول الحس الظاهر والباطن ، ولهذا لا مجال لاستخدام الاسلوب الاستقرائى فيه ، فكيف إذاً ندرسه . كيف نقرر وجود الموجود منه ، ونحدد صفات مائبت وجوده منه ؟ من الواضح أنه لا سبيل إلى ذلك بغير الأسلوب الاستنباطى ، فبالاستنباط نستطيع أن نفصل فى وجود العقل والجوهر المادى ووجود الإله ، وبالاستنباط قد نستطيع أن نحدد خصائص العقل ومصيره ، وخصائص الجوهر المادى ، وبه قد يتسنى لنا أن نعرف صفات الإله وصلته بالكون ، وأساس الأسلوب الاستنباطى كما سبقت الأشارة إليه هو البحث عن البديهيات واستنباط نتائجها ، وقد عرف ديكارت هذه الحقيقة ، فحاول فى دراسته لما وراء الطبيعة أن يصل إلى بديهية لا سبيل إلى الشك فى صدقها ، وأن يستنبط منها ما عساه لها من نتائج بالنسبة لوجود الله ووجود عالم المادة ، وقد كانت بديهيته

(أنا أفكر فأنا إذا موجود) ومنها استنبط وجود عالم المادة ووجود الله .

أما اسبينوزا : فكان أكثر من ديكارت دقة وأشد منه عناية فى تطبيق الأسلوب الاستنباطى فى الفلسفة ، فقد مهد لهذا التطبيق قبل الاقدام عليه . وسلك فى ذلك مسلك واضعى أسس الرياضة النظرية ، فحلل الأفكار الميتافيزيقية ، حتى وصل إلى ما ظنه البسائط الأولية ، كما حلل الرياضيون القضايا والأفكار الرياضيه إلى عناصرها البسيطة ، وحاول أن يستنبط منها حقيقة الكون على مثال ما صنع أولئك الرياضيون إذ حاولوا أن يستنبطوا خصائص الأشكال الهندسية من البسائط الرياضية ، ومهما يكن من شىء فالاستنباط لا الحس هو الطريق الوحيد الذى نستطيع أن نثبت به ما وراء الطبيعة ونحدد صفاته ونواميسه . ولا يقتصر مجال الاستنباط على نظرية الوجود ، بل هو أيضا أسلوب البحث فى الأخلاق ، فمباحث علم الأخلاق تدور فى أكثر أمرها حول الحسن والوجوب ، والصلات القائمة بينهما ، وعلماء الأخلاق : يعدون مهمتهم الأساسية تحليل معنى الحسن والوجوب ، وبيان المبادىء العامة التى تتصف بالحس الذاتى ، والأسلوب المرضى فى ذلك : هو أسلوب الاستنباط .

فمنهم من يرى أن هناك عددا من المبادىء العامة ، تتصف بالحس الذاتى اتصافا ضروريا : كالصدق ، والوفاء بالوعد ، والشجاعة ، والعفة ، ونحو ذلك . وأننا ندرك ذلك إدراكا مباشرا ، وأن القضايا التى تصل إليها عن طريق هذا الإدراك قضايا بديهيه من نوع البديهيات الرياضية المعروفة .

ومنهم من يذهب إلى أن هناك بديهية واحدة ، وأن هذه القضايا وأمثالها نتائج منطقية لهذه البديهية ، ومهما يكن من شىء فالفريقان متفقان على أن أسلوب البحث فى علم الأخلاق هو الاستنباط ، وأن مهمة الباحث الأولى هى

البحث عن بديهية أو بديهيات فى هذا المجال ثم استنباط نتائجها منها .

« * »

وقد آن لنا بعد عرض هذه التفصيلات المتعددة أن ننتفع بالمبدأ الذى وضعناه آنفا ، وهو مبدأ التراجع إلى الوراء لإلقاء النظرة العامة الجامعة ، والتقاط الصورة الكاملة التامة ، دون اهتمام بالتفصيلات .

* * *

و إذا ألقينا هذه النظرة ، على هذه العملية المركبة ، بدت لنا من مراحلها المتعددة ، مرحلتان تعلوان الجميع فى خطورتهما و بعد أثرهما :

أما أولاهما : فمرحلة ظهور الفرض ، ففى هذه المرحلة يتحقق الهدف الذى تتجه إليه عملية التفكير ، وهو الوصول إلى ناموس عام ، أو حل لمشكلة من المشاكل ، وفيها يقوم العقل بعمله الجليل ، وهو رؤية ذلك الجانب الخفى من الكون ذلك الجانب الذى تمثله النظم العامة ، من طبيعية ، وغير طبيعية ، فيدرك أن الأجسام تتمدد بالحرارة و أن زوايا المثلث تساوى قائمتين ، وأن سبب حركة الرياح العامة هى سقوط أشعة الشمس الحارة عند خط الاستواء ، وغير ذلك من النواميس العلمية المختلفة ، فالواقع أن كل ناموس علمى قد مر بهذا الطور الخطير .

و يمثل هذه اللحظة تمثيلا واضحا « إسحاق نيوتن » حينما رأى تفاحة تسقط إلى الأرض ، فسبح فكره سبحا طويلا أو قصيراً ، ثم خطر له أن هذا قد يكون جذبا ، وأن الأجسام تتجاذب . وربما كان من الصواب أن نقول أنه فى هذه الساعة شعر بالجذب كحقيقه واقعة ، وانكشفت له تلك الحقيقة الكونية

المحبوبة ، وليس معنى ذلك أنه أحسه بإحدى حواسه ، فالجذب لا تدركه الأبصار ولكنه أدركه بنوع خاص من الإدراك ، أدركه بعقله أو بذكائه ، كما يقول علم النفس الحديث ، فالعقل أو الذكاء ، قوة من قوى الإدراك ، تدرك عنصراً خاصا من عناصر الوجود ، وهى النسب القائمة بين الأشياء والتى تتألف من شبكتها مجموعة العلوم والمعارف الإنسانية ، هذه إذاً ساعة رؤية وكشف وخلق فكرى .

وجميع ما يحيط بهذه الخطوة — خطوة الفرض — خادم لها ، فالتفكير الذى يسبقها يهيىء الجو لها باسترجاع الحقائق السابقة ، وتحليلها ثم تركيبها فى صور مختلفة تمهيداً لظهور الصور الصحيحة الصادقة .

أما ثانيتها : فخطوة التحقيق العلمى ، ويجب أن تكون مهمة التحقيق العلمى فى عملية التفكير واضحة ، فمرحلة التحقيق لا تأتى بجديد ، ولا تزيد العلم اتساعا ، ولكنها تعمل عملا آخر لا يقل عن هذا فى خطورته العلمية ، وذلك أنها تزيل الشكوك التى تحوم حول الفرض ، وتنقله فى سلم المعرفة من درجة الشك والاحتمال إلى درجة الصحة ، والثبوت المنطقى ، وترقى به من حالته كمجرد فرض علمى غير ثابت إلى مستوى القوانين العلمية المعترف بها اعترافا عاما .

والتحقيق العلمى — كما سبقت الإشارة إليه — يأخذ صوراً متعددة ، ولكنه يقوم على أساسين اثنين ، فحجر الأساس فيه : إما قضايا بديهية ، أو وقائع حسية وكلاهما أساس صالح فالمحسوسات حقائق ثابتة ، والقضايا البديهية قضايا صحيحة صادقة ، وكل ما يتصل بالبديهيات أو الحسيات ، اتصال النتيجة المنطقية بالمقدمات يشارك فى تلك الصحة ، ويقاسم فى هذا الصدق ، وهذا هو صميم التحقيق العلمى فهو ربط الفروض العلمية أو الفلسفية بالقضايا البديهية أو الحسية بحيث ينزل منها منزلة النتيجة من مقدماتها الأساسية .

العلم والفلسفة إذاً تفكير ، والتفكير عملية اكتشاف وهى متممة لعملية الإدراك الحسى ، فاذا كان الحس يكشف لنا عن أشخاص الحيوان والنبات والجماد ، فان عملية التفكير تتم هذا الكشف ، فترينا حقائق هذه الأشياء ، والصلات الخفية التى تنبث فى جنبات الكون وشعابه ، وتربط بين شتيت عناصره وأشيائه ، وتمكننا بصورة تدريجية من رؤية هذا الوجود على حقيقته كونا هائلا متشعبا ، ولكنه متماسك خاضع فى كل حركاته وسكناته لنظم دقيقة ثابتة ، وليس معنى ذلك أنها قد أتمت عملها ، فأصبح الوجود بادى الأسرار للعقول والأفكار ، ولكنها تسير فى هذا الطريق قدما ، بخطى وئيدة ولكنها موفقة ناجحة .

هذه العملية إذاً عملية رؤية ، ولكن للنواميس العامة ، لا لأشخاص الأشياء وأعيانها ، وهى أيضا عملية استيثاق واستيقان ، فالمفكر العلمى لا يكتفى بما يسنح لخاطره من أفكار ، بل ينشئ بعد ذلك متثبتا مستوثقا من صحة ما يرى ، فاذا لم يبق لديه شك فى صحة وحى قريحته ، وسانحة خاطره ، وأيقن أنه قد رأى من الوجود صفحة حقيقية كانت خافية أحس بأنه قد بلغ غايته ، وانتهت مهمته .

ظهرت عملية التفكير الفلسفى والعلمى ؟ وكان طبيعيا أن تؤتى ثمارها ، وأن تتوالى نتائجها وتتكاثر ، ولكن التفكير شىء ، والنتائج شىء آخر ، وكل لبس يصيب هذه الحقيقة ، يعود على البشرية بشر ثقافى مستطير .

وقد كنا عامدين حينما لفتنا الأنظار إلى أن انكسماندر وانكسمانيس لم يرث كل منهما عن سابقه ، سوى مبدأ التفكير ، وأنه احتفظ لنفسه فى الوقت ذاته بالحرية التامة إزاء النتائج التى وصل إليها ، ولهذا رفضها بعد التفكير ولما وصل

إلى نتائج مخالفة لها أعلنها دون تهيب أو تردد ودون أن يرى فى ذلك عقوقا لأستاذه ، أو تهاونا فى حقه .

التفكير والنتائج التى يصل اليها التفكير حقيقتان متباينتان : فالتفكير عملية نفسية ، والنتيجة فكرة أو مبدأ أو ناموس وتتجمع النتائج و ينضاف بعضها إلى بعض فتمثل فلسفة خاصة كفلسفة أفلاطون وأرسطو ، أو علما معينا كالهندسة مثلا وواضح أن التفكير هو الذى يصل بنا إلى النتائج . فما النتائج إلا الحقائق الكونية التى ينتهى بنا التفكير إلى رؤيتها وافتراضها وتحقيقها تحقيقاً منطقيا كما سبق الإشارة إليه .

وليست القيمة العليا للنتائج ، ولكنها للتفكير ذاته ، وما دامت الشعوب تحتفظ بفكرة التفرقة بين التفكير والنتائج واضحة صريحة وتولى التفكير ما يستحق من تقدير عال فان الفلسفة والعلم يظلان فى حياة مزدهرة ، فتتوالى الكشوف و يظهر كبار العلماء والفلاسفة ، أما إذا اختلط الأمر فظن الناس أن الفلسفة والعلم هما تلك النتائج التى وصلنا إليها لا التفكير الحر المستقل الذى يؤدى بنا نحوها ، فان عصر الركود والجمود والعقم يحل و يطول أمده .

والواقع أن الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى قد ظلا فى حالة نشاط فتتالت البحوث وتعددت الكشوف الفلسفية والعلمية منذ عهد طاليس إلى عهد أرسطو لأن الجو الثقافى اليونانى كان محتفظا بالتفريق بين التفكير ونتائج التفكير وكان يعد الفلسفة هى التفكير نفسه فظل التفكير الحر المستقل قائما يؤدى عمله بنشاط و إقدام ، وما هى إلا أن تملك الناس الإعجاب بفلسفة أرسطو فرفعوا النتائج التى وصل إليها ونظمها فوق قدرها ووصلوا بها إلى درجة التقديس ، وعدوها صميم الفلسفة وجعلوا مهمة الدارس الإلمام بها حتى مات التفكير الحر المستقل

الذى نعمت به اليونان طويلا ، وانقضى عصر الكشف والإنتاج العلمى والفلسفى وسادت آراء أرسطو فى الغرب والشرق معا منذ ذلك الحين إلى عصر النهضة الأوروبية .

وتزداد خطورة الموقف إذا عرفنا أن طرق التفكير العلمى الاستقرائى لم تكن قد اكتشفت بعد فكانت البحوث الطبيعية قائمة على أسس نظرية ، لا تجريبية . ولهذا كان الكثير منها فاسداً غير صحيح ولا مستقيم ومع ذلك دان الناس لها بالطاعة فى القرون المتوسطة .

ولكن الحال تغير فى عصر النهضة : فبعد بعث الآداب الإغريقية والرومانية آذنت حياة التقليد بالمغيب ، وذلك أن الناس كانوا إذ ذاك مقلدين لا مفكرين فكانوا يتداولون صورة لفلسفة أرسطو دون أن يجرءوا على مناقضتها أو التفكير الحر المستقيل فى شىء مما يدخل فى نطاقها. ولكنهم بعد أن تدارسوا الفلسفة والعلوم والآداب الإغريقية استيقظت فيهم روح فلاسفة الإغريق وعلمائهم فتمردوا على فلسفة أرسطو وصمموا على الإقدام على ممارسة التفكير الحر المستقل ، ومن ثم ظهرت طلائع العلم والفلسفة وأخذت ثمرات البحوث تترادف حتى تكونت العلوم فى صورتها الحالية ، واستمرت روح البحث الحر سائرة فى طريقها إلى يومنا هذا . وأدرك الناس نهائيا أن القيمة العليا هى للتفكير نفسه لا للنتائج .

وقد كان لهذا أثره فى عالم التربية ، فقد ظن الناس فى عصور التقليد أن التربية هى التحصيل لا التفكير فى الفلسفة والعلم والأدب فعكفوا على تحصيل تلك العلوم والمذاهب الفلسفية ، ولكنهم ما كادوا يستيقظون من غفلتهم هذه ويرون أن التفكير هو القيمة الإنسانية العليا التى يجب أن تتحلى بها البشرية حتى انتقضوا على النظرية التربوية القديمة ، وشرعوا يتخذون من التربية

أداة للتدريب على التفكير فى مختلف العلوم . وقد وقع فلاسفة العرب أنفسهم فى هذه الغلطة ، فقابلوا الفلسفة اليونانية بروح الإكبار والإعجاب كما لاحظ ذلك المرحوم الشيخ محمد عبده . وأولوا نتائجها ثقتهم وعاملوها بروح التقليد بوجه عام . ولكن لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن هناك عدداً غير قليل من أولئك الفلاسفة تحرروا إلى حد غير قليل من ربقة الفلسفة اليونانية ووضعوا لأنفسهم مذاهب خاصة ، قد تختلف فى صورتها العامة عن الفلسفة الأرسطية وسواها ؛ ولكنها تستمد عناصرها من محيط الفلسفة اليونانية الفسيح . على أن الثورة ضد الفلسفة اليونانية التى عرفتها أوربا فى مطلع عصر النهضة لها ما يماثلها فى الممالك الإسلامية : فالغزالى يمثل روح الثورة ضد تلك الفلسفة وكتابه تهافت الفلاسفة حملة عنيفة عليها .

ومهما يكن من شىء فالخلط بين التفكير ونتائجه فى الشرق والغرب والاهتمام بالنتائج لا التفكير الحر المستقل كان له فى الشرق والغرب أسوأ الآثار الفكرية وقد كان أفلاطون هو أول من بذل جهداً قويا متواصلا لإثبات أن الفلسفة هى السعى وراء الحقيقة والتفكير المستمر من أجل الوصول إليها لا تلقين نتائج البحوث التى ينتهى االفلاسفة إليها .

والواقع أنه لا يوجد معرفة تستحق أن تحمل اسم العلم عن طريق التلقين ولا بد لكل قضية أن تمر أولا بجميع أطوار عملية التفكير ليحق لها أن تحمل اسم العلم عن جدارة واستحقاق . فلا بد أن يكون شك ثم تفكير يعقبه دور يرى فيه المفكر الفكرة الجديدة تستطع فى الأفق . فهذه الرؤية الذاتية هى الخطوة الأولى الأساسية فى عملية الإدراك والمعرفة ولا بد أن يتلو ذلك تحقيق هذه الفكرة وتمحيصها فيشك فيها ما وسعه الشك ويبحث عن الدلائل التى تؤيدها أو

تناقضه ما حتى إذا تهافتت كل فكرة معارضة وتظاهرت الدلائل على صحتها قبلها وآمن بها . فاذ ذاك و إذ ذاك فقط يكون علم وتكون معرفة .

أما تلقين الأفكار و إيداعها الحافظة فليس علماً ولا معرفة ، فان من يتلقى آراء الغير لم ير بنفسه ولم يستوثق ، ولا علم إلا لمن برى و يستوثق . وينبغى أن نتذكر أننا نسير فى كل ذلك على ضوء معنى كلمة علم . فأهم خصائصه : أنه رؤية يقوم بها الفرد بنفسه ، وأنه رؤية مصحوبة بيقين أو ثقة ، واليقين أو الثقة هما النتيجة الحتمية للدلائل التى تمهد المبادىء العلمية والتى نصل إليها فى مرحلة التحقيق العلمى ، وما انتفع بهذا المبدأ أحد بمقدار ما انتفعت به التربية فى عصرنا الحديث . فقد أدرك المربون أن المعرفة هى التفكير والوصول إلى النتائج عن طريق التفكير ، فأصبحت التربية عند المربى الحديث إعداد المادة وحمل الناشىء على التفكير فيها واستنباط المبادىء التى يمكن أن تقرأ فى ثناياها ، وعلى هذا الأسلوب يجرب العمل فى علوم الطبيعه والكيمياء وطبقا له تستنبط قواعد النحو وأصول الرياضة وغيرها من العلوم .

الفصل الثالث

أسس التفكير الفلسفية

الثقة بالعقل

التفكير إذاً هو أهم ما جاءت به الحركة العقلية التى بدأها طاليس ، ولكن هذه الحركة قررت أيضاً عدداً من المبادىء الفكرية الهامة منها مبدأ الاعتماد على العقل فى فهم الوجود والثقة بالنتائج التى يصل بنا إليها فى هذا المجال ، وهذا مبدأ جديد وخطير . أما خطره فلا مكان للشك فيه . فما كان للفلسفة والعلم أن تظهر طلائعهما وتتوالى كشوفهما لولا الثقة بقدرة العقل الإنسانى على الوصول إلى حقائق الوجود ونواميسه ، وأى ضعف أو فتور يصيب هذه العقيدة لا يلبث أن يبدو أثره فى ركود الحركة العقلية أو وقوفها ، وأما جدته فواضحة مما أسلفناه فى صدر بحثنا هذا . فالمعروف أن العالم فى بلاد اليونان وغير بلاد اليونان كان حتى عهد طاليس يخضع لعقائد وآراء متوارثة ذات صبغة دينية ، وكان السائد على الأذهان بوجه عام هو أن الكون كتاب خفى غامض لا يفك رموزه إلا الديانات والتقاليد ، وأن العقل أعجز من أن يصل إلى أسراره وغوامض سننه ونواميسه وهذا فى الواقع إيمان بنظرية معرفة خاصة ، وهى التى تقرر أن سبيل العلم الأمين هو الدين لا النظر الفلسفى ، الذى قد يحاوله العقل ، فظهور طاليس فى هذا الجو التقليدى وشكه و إقدامه على التفكير و البحث عن حقيقة هذا الوجود بالنظر العقلى البحث تقرير عملى لمبدأ جديد ، ونظرية معرفة لا عهد للناس بها من قبل ، وهى التى تقرر أن العقل يمكن أن يسبر غور الوجود و يصل إلى حقائقه

ونواميسه الخفية ، ومهما يكن من شيء : فقد ظهر مبدأ ثقافي جديد في بيئة الإنسان العقلية ، وصار لا مفر له من أن يخوض غمار نضال طويل ضد المبدأ القديم السابق الذكر ، وهو صراع فلسفي سلاحه الحجة والبرهان ، وله تاريخ طويل ذو معالم واضحة . وليس في مقدورنا في هذا الفصل أن نزيد على مجرد الإلمامة بهذا التاريخ والإلماع إلى الناحية الفكرية منه ، ولنبدأ بالتاريخ .

وأول ما يبدو لنا إذا ألقينا نظرة تاريخية على هذا النضال الناشب بين العلم والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من الناحية والتقاليد من الناحية الأخرى هو ما حدث في اليونان مما سبقت الإشارة ، فقد كان اليونانيون يستندون فيما يؤمنون به من عقائد ويعيشون في ظله من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية إلى الدين والتقاليد ، فلما ظهرت الحركة الفكرية التي ابتدأها طاليس أخذ الحال يتغير ، فقد كانت هذه الحركة محاولة صريحة للتخلص من أسر التقاليد واعتماداً على العقل وحده ، وأول ما يظهر في مثل هذه الحالة هو ظاهرة الشك في التراث الثقافي ، فاذا أخذت العقائد القومية تتداعى خلفت وراءها فراغاً كبيراً ، وطبيعي : أن يملأ هذا الفراغ على نحو ما ، وهنا يضعف سلطان نظرية المعرفة القديمة التي تحاول أن تقصر أسباب العلم على الدين والتقاليد ، وينشأ إيمان جديد بالعقل وقدرته على حل المشكلات النظرية والعملية ، ويظهر أثر هذا الإيمان في نهضة فكرية فلسفية وعلمية قوية وقد قام بهذا العمل الإيجابي في بلاد اليونان طاليس وتلاميذه ، ثم من جاء بعدهم من كبار الفلاسفة ، وقد جاءت كشوفهم العلمية والفلسفة مشجعة ، فازداد الايمان بقدرة العقل على الكشف والوصول إلى الحقائق الكونية بجميع أنواعها ، ومع ذلك فلم يخل تاريخ هذه

النهضة العقلية من اضطرابات ، فعصر السوفسطائيين يمثل حقبة من التاريخ ، تزعزع فيها الإيمان العام بقدرة العقل على الوصول إلى الحقائق ، ولكنه عهد لم يطل أمده ، فلم يلبث سقراط وأفلاطون أن أرجعا للناس ثقتهم بالعقل وقدرته . أما الحادث التاريخي الكبير الذي وضع حداً لهذه النهضة ، فهو اعتناق أوربا للدين المسيحي . وسبب ذلك واضح ، فالدين والفلسفة يقومان كما أسلفنا على نظريتين مختلفتين من نظريات المعرفة . فالوحي لا العقل في نظر الديانات هو مصدر العلم الصحيح ، واعتناق المسيحية تسليم بهذه النظرية . ولا نحاول الآن أن نتعمق في دراسة الموقف ، بل نكتفي بتسجيل هذا الحال كانتصار لأحد المبدأين على صاحبه بعد عصر طويل من السيادة والاستقرار .

فإذا انتقلنا إلى عصر النهضة رأينا التاريخ يجدد نفسه ، فقد كانت أوربا خلال القرون المتوسطة ترجع إلى المسيحية في عقائدها ونظمنا وحياتها الفردية والاجتماعية ، ولم يكد الدور الذي قامت به الفلسفة في ذلك العهد يزيد عن خدمة الدين وتدعيم عقائده ، فلما بعثت الآداب الإغريقية في بداية النهضة كان بعثها نذيرا بانقضاء هذا الجو الراكد وحلول عصر ثقافي جديد . وما كان لنا أن نتوقع غير هذا . فأهم خصائص التراث اليوناني هي الاعتماد على العقل والإيمان بالعقل . والثقافة اليونانية القديمة تستميل العقول البشرية وتتحداها وتدفعها إلى التفكير ، وفي مثل هذه الظروف يستيقظ العقل من سباته ، وينشط من عقاله ، ويستشعر الثقة بنفسه ، وينقدم للعمل غير هياب ولا وجل . والواقع أن أثرها الأول كان ثقة جزئية متحدية . ففكرو النهضة لم يلبثوا حينما اشتعلت أفكارهم بنار الحرية الفكرية أن هاجموا الثقافة اليونانية ، فانهالوا على منطق أرسطو وما

وما كتبه فى الطبيعة والميتافيزيقيا وغيره بالتجريح ، ثم دب فيهم ما كان يدب فى نفوس فلاسفة اليونان من روح الثقة بالنفس والايمان بالعقل ، فأقبلوا على دراسة الطبيعة وما وراء الطبيعة ، دراسة موضوعية جديدة وضعت أساس العلوم والفلسفة الحاضرة ، وهكذا تحول الحال ، وبدأ الايمان بالعقل يتأسس ، ويسترجع ماكان له من سلطان فى عهد اليونان القديمة ، ويشد أزر النهضة العلمية والفلسفية الحديثة .

ولم ينته الأمر فى هذا الدور كما انتهى فى عهد اليونان إلى مجرد الاعتراف بقدرة العقل ، وافساح الطريق للفلاسفة ، بل أدى تطور الصراع بين العلماء من ناحية والكنيسة من الناحية الأخرى إلى ما هو أهم من هذا ، فالايمان بقدرة العقل شىء ، والاعتراف بحرية العقل وحق الانسان فى التفكير شىء آخر ، وقد اشتد الخلاف بين الكنيسة والعلماء حول المبدأين معاً ، ثم انتهى بالتراجع فى الميدانين ، والتسليم بقدرة العقل وحق الانسان فى التفكير الحر ، وهو الحق الذى ضمن الأمن والسلامة للعلماء والفلاسفة ، ومكنهم من مزاولة عملهم فى جو خال من الخوف والرهبة .

والواقع أن الناس لم يلبثوا أن شعروا بأن الصراع يدور فى حقيقة الأمر حول شرعية العلم والفلسفة ، وهل يمكن اعتبارهما من الأعمال المشروعة التى يسمح بمزاولتها فى المجتمع ، أم هما من الأعمال التى يجب حظرها ، ولا يجوز تعاطيها فكان طبيعياً أن تكون خاتمة هذا الصراع الدامى الذى استمر حقبة طويلة الاعتراف العام بشرعية التفكير ، والتسليم بحرية العقل وجعلها من حقوق الانسان ، وإثباتها فى صدر الدساتير الديموقراطية .

ولكن ما هو المراد بالثقة بالعقل ، فهذا معنى لا يزال غامضاً ، وفى حاجة

شديدة إلى كثير من التحليل الدقيق الذى يكشف عن عناصره ، ويحدد فكرته العامة تحديداً وافياً . وأول ما يجب أن نتذكره فى هذا الصدد هو أن العقل يقوم بعملية خاصة ، وهى عملية التفكير ، التى عنينا بتحليلها فى الفصل السابق ، وهى عملية تتركب من عمليات متعددة ، كما سبقت الاشارة إليه ، ولكن أهم مراحلها هى مرحلة الكشف . وهى المرحلة التى يرى فيها العقل ناموساً كونيا جديدا ، ومرحلة التحقيق التى يحاول فيها أن يستوثق من صحة ما يرى .

والكون كما سبقت الاشارة ، قد تبدو بعض مظاهره للحواس كالجبال ، والأنهار ، والأشجار ، والمدن ، وأشخاص الانسان والحيوان ، ولكن كثيراً منها خفى غامض ، بعيد عن متناول الحس كالقوانين الرياضية ، والطبيعية ، وأسرار ما وراء الطبيعة ، وهذه النواميس الكونية هى التى تتكشف للعقل فى مرحلة الكشف فيراها ويشعر بها ويندفع بعد ذلك إلى تحقيقها . والثقة بالعقل معناها أن العقل فى عملية التفكير التى يقوم بها قادر حقا على رؤية هذه النواميس والكشف عن هذه الأسرار ، وعلى إثبات صحتها ، وأنه لهذا السبب يغنينا عن الرجوع إلى غيره من مصادر العلم والمعرفة الخارجية ، الثقة بالعقل هى بالايجاز الايمان بأنه ليس كما كان يتهمه القدماء ، وعصور التأخر ، عاجزاً حسيراً ، أمام حقائق الكون بل هو قوى قادر على إدراكها ، والوصول إليها ، والذين ينزعون الثقة من العمل يرمونه فى العادة بالعجز عن الوصول إلى هذه الحقائق ، ويتهمون النتائج التى يصل إليها ويزيفونها ، وهم طوائف متعددة ، فمنهم من ينكر إمكان العلم على الاطلاق ويرى أن عجز العقل معناه استحالة المعرفة ، ومنهم من يذهب إلى أن هناك طريقا آخر للمعرفة وهو طريق الكشف أو الالهام أو نحو ذلك ، وسنتصدى فيما بعد لهذا الرأى ، ونحاول أن نلقى عليه شيئا من الضوء ، أما الآن فننتقل إلى موضوع

آخر تعد دراسته تمهيداً طبيعيا لدراسة الرأى السابق الذكر دراسة مستنيرة . ونعني بذلك بيان الموضوعات التى يتصدى لها العقل وتحديد ما يمكن ومالا يمكن للعقل أن ينجح فى دراسته .

والواقع أن النضال الذى استحر حول قدرة العقل لم يحدد الموقف فى بداية الأمر تحديداً واضحا ، فهل كان الشك يدور حول قدرة العقل فى جميع الموضوعات التى يتصدى لدراستها أم كان يدور حول قدرته فى موضوعات خاصة . تركت هذه الأمور فى البداية غامضة ، ثم لم يلبث الموقف أن اتضح ودخله ضرب من التحديد ، وليس فى مقدورنا الآن أن ندرس هذا الموضوع دراسة مستقصية ولا حاجة بنا الآن إلى ذلك ، فيكفينا منه ما يمس معضلتنا الأساسية ، ولهذا نقتصر على الملاحظات القليلة الآتية :

الكون بجملته هو موضوع الدراسات العقلية المختلفة ، والكون فى رأى الكثيرين ينقسم قسمين كبيرين يحتل أحدهما الزمان والمكان ، ويبدو للحس والعيان ، وهو الطبيعة الحية ، وغير الحية ، والثانى هو عالم ما وراء الطبيعة وهو كون لا يدركه الحس ، ولا يحل فى زمان أو مكان ، وقد حاول العقل البشرى أن يدرس هذه الموضوعات جميعا فتصدى لدراسة الطبيعة من جميع نواحيها وبجميع فروعها وشعبها ، فهو مره يجرد الامتداد ويدرس الأشكال المنتظمة ، التى قد يأخذها الامتداد ، فينشأ من ذلك علم الهندسة النظرية ، وأخرى يأخذ الطبيعة كما هى ، فيدرس النبات والحيوان والجماد ، فينشأ من ذلك علوم الطبيعة والكيمياء والحيوان والفلك والتشريح ، ونحو ذلك .

وكما اتجه إلى دراسة الطبيعة ، اتجه أيضاً إلى دراسة ما وراء الطبيعة فقاده النظر فى الطبيعة أحياناً إلى نتائج إيجابية كوجود الإله ووجود الجوهر العقلى ونحو ذلك ، وقد اختلفت طرقه فى دراسة الطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، ولكنها جميعاً

تأخذ صورة واحدة عامة ، فالتفكير بوجه عام هى عملية عقلية تفضى إلى رؤية فرض والاستيثاق من صحته ولكن الاستيثاق أو التحقيق العلمى كما سبقت الاشارة يأخذ صورتين مختلفتين فأحياناً يتم إثبات الفرض بارجاعه إلى بديهية من البديهيات مباشرة أو بالواسطة كما هو الحال فى الرياضة ، وفى كثير من فروع الفلسفة ، وأحيانا يثبت الفرض بالتجارب والملاحظات الحسية الصادقة الدلالة ، ويحدث هذا فى العادة فى العلوم الطبيعية ، وقد جرى الناس على البحث فى الطبيعة بأسلوبها الخاص ، وفى الرياضة بأسلوبها الخاص ، وفى الميتافيزيقيا بالأسلوب الاستنباطى المستعمل الرياضة ، وقد حصلت الانسانية على نتائج مختلفة من هذه الدراسات واستخدمت الكثير منها فى حياتها العملية نفسها ، فلمعنى الشك فى قدرة العقل إذا وقد استطاع أن يصل النظريات الرياضية والقوانيس الطبيعية العديدة العاملة فى حياة البشرية فى الشرق والغرب . وما مجال هذا الشك ، أهناك شك فى قدرته على التفكير الرياضى أو الطبيعى أو الفلسفى ؟ وما أساس هذا الشك ، وكيف يبرر ؟

لا ريب أن الشك فى قدرة العقل بعد هذا الانتاج العلمى والفلسفى الغزير يبدو سخيفا مضحكا ، ولكن الدراسة الفلسفية لهذا الموقف قد أسفرت عن نتائج تدعو إلى الدهشة والعجب ، وهى مع ذلك غير ضعيفة أو واهية ، وقد بدأت الفلسفة الحديثة بالإيمان بقدرة العقل فى جميع ميادين البحث ، ولم يساور ديكارت ولا بيكن شىء من الشك فى هذا ، ولم يزد هذا أو ذاك عن البحث عن أسلوب جديد للتفكير واثقاً كل الثقة بأن هذا هو كل مايحتاجه العقل ليصل إلى الحقيقة فى أى مجال فلسفى أو علمى ، ولكن الفلسفة الانجليزية التى بدأها لوك ، وبلغت أوجها على عهد هيوم ما كادت تدرس الأفكار الانسانية الحسية

وغير الحسية ، وتدرس مدى ما تتمتع به من صحة ، حتى انتهت إلى النتائج السلبية التى تضمنتها فلسفة هيوم ، والتى أدهشت الناس جميعاً ، فقد استطاع هيوم أن يؤيد قضية عجيبة تقرر للناس أنهم مخدوعون فيما يخيل إليهم أنهم يعرفونه من محسوسات وقضايا علمية وفلسفية ، ولكن رد الفعل كان قوياً وسريعاً فقد ظهر كانت وانصرف إلى دراسة موضوع المعرفة ، وانتهى من دراسته إلى اثبات صحة العلوم الرياضية ، وإن كان قد أنكر صحة الميتافيزيقيا .

فاذا تركنا الفلسفة الأوربية وانتقلنا إلى محيط الفلسفة العربية كان أعلى صوت نسمعه فى هذا الميدان هو صوت الغزالى ، وهو مهم لنا من ناحيتيه السلبية والايجابية ، ويجب أن نتذكر أن الغزالى من أكبر من ظهر فى تاريخ البشرية من محبى الحقيقة وطلابها المخلصين ، فقد طلبها فى العلوم الدينية من كلام وفقه ، وسواهما وطلبها فى الفلسفة من منطق وميتافيزيقا وأخلاق ، وطلبها فى آثار المتصوفة ، ومأثور أقوالها وطلبها فى كل أفق دون أن يألوا فى طلبها جهداً ، أو يدخر وسعا . وحديثه فى سعيه وراء الحقيقة حديث شائق جدا ، قصه هو بنفسه ، وموجز قصته : أنه بعد أن أتم دراسة العلوم الدينية انتقل إلى دراسة الفلسفة ، ثم تلا ذلك دور شك انهدمت فيه عقائده ، وصار لا مفر له من السعى فى طلب الحقيقة إذا أراد أن ينقذ عقله وروحه من آلام الشك وسمومه . وهنا اتجه إلى الفلسفة ، فعرض فى كتاب سماه « مقاصد الفلاسفة » مشاكلها الأساسية بعبارة واضحة ، وترتيب منطقى محكم ، وبعد أن تم له ذلك اتجه إلى أمر آخر ، اتجه إلى إثبات أن الفلسفة لا تستطيع أن تصل بنا إلى ما نظمأ إلى معرفته من حقيقة الكون وسر الوجود ، وأودع نتيجة جهوده فى كتاب سماه « تهافت الفلاسفة » وهذه هى النتيجة السلبية لمذهب الغزالى فى المعرفة ولكن

يجب ألا يفوتنا أن الغزالى إذا كان قد اتهم قدرة العقل البشرى وعزا إليه العجز فان اتهامه لم يكن عاما ، فقد صرح بأن العقل قد نجح فى الوصول إلى الحقائق الرياضية والعلمية ، ولكنه أنكر قدرته على حل لغز الوجود ، والوصول إلى عالم ما وراء الطبيعة ، وهى نتيجة تشبه فى كثير من الوجوه نتيجة كانت الفيلسوف الألمانى المعروف .

أما الناحية الايجابية لمذهب الغزالى فهى وليدة دراسته الدينية ، فقد درس علم الكلام ، ودرس مذهب التصوف ، وانتهى من دراسته هذه إلى أن التصوف هو الطريق الموصل إلى معرفة حقيقة هذا الوجود ، والفكرة العامة فى هذا المذهب : هى أن المعرفة الحقة نتيجة الادراك المباشر ، لا النظر الفعلى .

والتصوف : هو السعى إلى الوصول إلى إدراك ماوراء الطبيعة إدرا كامباشراً وقد مارس الغزالى حياة المتصوفة ، ليصل هذا النوع من أنواع المعرفة ، و يؤخذ مما تفرق فى ثنايا كتبه أنه وصل إليها ، أو إلى قدر منها . وخلاصة القول : أن الغزالى والفلسفة النقدية يتفقان على أن النظر العقلى عاجز عن الوصول إلى عالم الحقيقة ، ولكن الغزالى يذهب إلى إمكان الوصول إليها عن طريق التصوف ، ويرى الغزالى والمتصوفة بوجه عام ، أن هذا هو الطريق الذى سلكه الأنبياء فأفضى بهم إلى المعرفة ، وهو عندهم شىء آخر مخالف للنظر العقلى ، وقد بذل الغزالى جهداً كبيراً فى شرحه و بيان حقيقته فى كتاب الأحياء وسواه ، وهو بالاجمال ضرب من التدريب الروحى ، ينتهى بانكشاف عالم ما وراء الطبيعة ورؤيته رؤية مباشرة بدرجات تختلف فى الوضوح ، وهذا الإدراك بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة ، كالحس بالنسبة لعالم الطبيعة ، ففى كليهما يدرك الانسان الوجود مباشرة .

وقد كانت هذه النظرة قديما تقابل بالاستهجان من دعاة العقل والنظر ، ولكن الدراسات الفلسفية والنفسية الحديثة قد غيرت الموقف ، فبدأ المفكرون يتحولون عن جمودهم القديم ، ولا يستبعدون وجود مصدر آخر للمعرفة غير العقل والنظر ، وقد كثر الآن أنصار هذا الرأى المحدثون فى أوربا نفسها ، و بدءوا يعترفون — إلى جانب النظر العقلى الذى ظهر فى الغرب — بطريق الادراك المباشر الذى ظهر فى الشرق فى صورة دين وتصوف ، و بدا لهم أن من خطأ الرأى وخطله : ألا يتدبروا الأمر و يدرسوا طبيعة هذا الطريق ، لا سيما بعد أن قاد العقل أتباعه إلى هذه الفوضى العقلية فى النظريات الكونية والأخلاقية والسياسية ، ثم إلى هذا الصراع الدامى المنجدد بين ملايين البشرية ، وقد بدأ عدد من كبار المفكرين فى أوربا ينادون بضرورة الانتفاع بهذا الطريق الذى قاد أمم الشرق وشعوبه ، وأعطاها ثقة وإيمانا وسلاما . ومهما يكن من شىء : فالموقف موقف خلاف بين النظر العقلى والادراك المباشر ، أو المعرفة القائمة على الادراك المقاشر ، والمحدثين من أنصار الادراك المباشر لعالم ما وراء الطبيعة منزع جديد فى عرض مذهبهم المذكور ، يشبهون فيه الانتقال من النظر العقلى فى معرفة ما وراء الطبيعة بالانتقال من النظر العقلى إلى الحس والمشاهدة فى دراسة الطبيعة نفسها ، ذلك الانتقال الذى بدأ فى أوائل عصر النهضه ، وهى نظرة جديدة طريفة ، نعرض خلاصتها فيما يلى :

كان فلاسفة اليونان فى دراساتهم الطبيعية والميتافيزيقية يستخدمون أسلوب البحث الاستنباطى الذى سبقت الاشارة إليه أكثر من مرة ، وهو أسلوب يتخذ من بعض القضايا البديهية ، أو التى يظن أنها بديهية أساسا يبنى عليه فيستنبط منها و يمعن فى استنباطه ما اتسع له المجال وانفسح أمامه الطريق ، وأهم خواص هذا الأسلوب أنه عقلى لا تجريبى ، فالقضايا البديهية وما ماثلها لا تستنبط من

تجارب حسية ، كما تستنبط القوانين الطبيعية ، ولكنها تقرر دون رجوع إلى حس أو مشاهدة ، ثم تتولد منها نتائجها ، والمذاهب الفلسفية أو العلوم الطبيعية التى تنشأ على هذا النحو ليست وليدة الحس أو المشاهدة ، ولكنها نتاج العقل وحده ، وهكذا كانت فلسفة أرسطو ونظرياته الطبيعية ، فلما حل عنصر النهضة شعر الرعيل الأول من العلماء والفلاسفة بأن هناك شيئا من الشذوذ فى محاولة معرفة الطبيعة دون الدنو منها وملاحظتها وتملكهم أحساب قوى بأن هذا النوع من الدراسة يجب أن يقوم على أساس ملاحظة الظواهر الطبيعية المختلفة لاستخلاص نواميسها العامة والاستيثاق من صحتها ، وقد كان «بيكن» أول من وضع أساس المنهج التجريبى الجديد ، كما كان غاليليو فى طليعة الذين لجئوا فى دراسة الطبيعة إلى أسلوب الملاحظة الحسية ، وما أن تم للعلماء تحديد أسلوب البحث التجريبى وتيسر استعماله فى بحوثهم الطبيعية ، حتى دخلت تلك الدراسات فى عهد جديد ، فتوالت الكشوف ، ووضعت أسس العلوم الطبيعية المختلفة ، ويمكننا أن نقول بوجه الاجمال : ان العلوم الطبيعية ولدت يوم تحول الناس من الأسلوب الاستنباطى الذى يحاول أن يحدد أنواع الموجودات ويقرر صفات الكائنات فى غيبتها ، وبمعزل تام عنها ، إلى الأسلوب الاستقرائى الذى على عليها المشاهدات الفروض العلمية ، فيحققها بالتجارب الحسية ، لا بالبراهين النظرية ، فدراسة النبات مثلا أصبحت تقوم على مشاهدة النباتات المختلفة ، وتصنيفها ، والبحث عن النواميس الطبيعية الخاصة بكل نوع منها عن طريق المشاهدة الحسية والتجارب العلمية بعد أن كان النظر العقلى يقوم فى ذلك بالدور الأكبر ، وكذلك الفلك وسواه ، والحادث الجديد : هو اتخاذ الملاحظة الحسية دعامة لتلك الدراسات ، فهى التى أكسبت هذه الدراسات صبغتها

العلمية ورفعتها إلى المكان الرفيع الذى تشغله الآن فى تقدير العلماء وغير العلماء . تعتمد الدراسات الطبيعية الحديثة إذاً على المشاهدة و يعتقد علماء الطبيعة أنهم بالعدول عن أسلوب الاستنباط الفلسفى إلى أسلوب المشاهدة والاستقراء قد كسبوا كسبا كبيراً ، فقد ضمنوا بذلك صحة ما قد تصل إليه بحوثهم من نتائج ، واستطاعوا أن يقدموا نتائجهم وتجاربهم معاً ، فتسنى لكل دارس أن يختبر تلك النتائج فى ضوء تلك التجارب ، فهل من الممكن أن يحدث مثل هذا فى دراسة ما وراء الطبيعة ، هل يمكن أن يحدث انتقال مماثل من أسلوب الاستنباط إلى أسلوب المشاهدة فى معرفة ما وراء الطبيعة ، هل من الميسور أن تتحول الفلسفة من دراسة نظرية إلى دراسة تجريبية ، فتتحول من فلسفة إلى علم قائم على أساس المشاهدة ، كما حدث فى الدراسات الطبيعية . قد يبدو بادئ ذى بدء أن هذا غير ممكن فيما وراء الطبيعة ، فان الطبيعة بادية للعيان ، فنحن نرى الأشجار والأنهار والحيوان والأفلاك ، ونستطيع أن نلاحظها ملاحظة حسية وهذا هو كل ما نحتاج إليه لاستخدام الأسلوب الاستقرائى الذى يستمد الفروض من الملاحظات الحسية ، ويحققها بالتجارب الحسية . ولكننا لا نرى ما وراء الطبيعة ، ولا ندركه بأية حاسة ، فكيف يمكن أن نعدل فى دراسته عن أسلوب النظر العقلى إلى أسلوب المشاهدة .

لا جدال فى أن العدول فى دراسة الطبيعة عن أسلوب الاستنباط إلى أسلوب التجارب والمشاهدات قد رفع من قيمة النتائج ، وأحلها محلا علميا رفيعا ، وربما كان له مثل هذا الأثر فى دراسة ما وراء الطبيعة ، ولكن المعضلة الأساسية هى هل هذا ممكن ؟ .

وهنا يجيب الصوفية وأنصار مذهب الأدراك المباشر اجابتهم الحديثة فيقولون أن الدراسات الطبيعية لم تسم علما إلا بعد أن اعتمدت على أسلوب المشاهدة وان المعرفة بوجه عام لاتستحق هذا الاسم إلا إذا استمدت من المشاهدة وانه لامفر لبحوث ماوراء الطبيعة أن تدرك هـذه الحقيقة أما مسألة الامكان فليس عسيرة الحل كما قد يتوهم وليس الجواب عنها بالسلب كما قـد يتوقع . ويكفى أن نتذكر أن الدراسات النفسية قد ظلت زمنا طويلا ذات صبغة نظرية بحتة لتوهم القائمين بها أن استخدم أسلوب الملاحظة فيها غير ممـكن ولـكن البحوث التالية لم تلبث أن كشفت عن نوع آخر من الملاحظة وهو الملاحظة الباطنية التى لاتستخدم حاسة أو جارحة وقد أمكن استخدامها فى دراسة الظواهر النفسية المختلفة من تفكير وتخيل ونحو ذلك كما استخدمت الملاحظة الحسية فى دراسة الحيوان والنبات والارادة ونحوها وقد استخدم العلماء فعلا هذه الملاحظة فى تلك الدراسة فجاءت بنتائج لاسبيل إلى تجاهلها أوالحط من قيمتها . هناك إذا نوع من الملاحظة يذهب إلى ماهوأبعد من عالم الحس وهو عالم الظواهر النفسية أفلا يجوز أن تكون هناك ملـكة أخرى تستطيع أن تذهب إلى أبعد من عالم الطبيعة كله .

يذهب هذا الفريق من المفكرين والفلاسفة والصوفية إلى وجود هذه القوة النفسية ويؤيدون نظريتهم هذه بهذا العدد الجم من الأنبياء والمنصوفة الذين ظهروا فى العصور التاريخية المتعاقبة أما طبيعة هذه القوة فقد درسها وشرحها المتصوفة فى جميع العصور وقد أفاض الغزالى فى تحليلها فى كتاب الأحياء وسواه وهى بالاجمال قوة إذا عنى بتربيتها وصقلها انعكس عليها عالم ماوراء الطبيعة كما ينعكس عالم الطبيعة على حاسة البصر مثلا فهى إذا تدرك ماوراء الطبيعة ادراكا مباشرا كما تدرك الحواس عالم الطبيعة كذلك ، وهذه القوة هى مصدر آخر

من مصادر العلم . وتمتاز عن النظر العقلى بأنها إدراك مباشر لا نظر واستنباط ويرى بعض المحدثين من أنصار هذا الرأى أن هذا النوع من المعرفة يجب أن يسمى علما كما سميت بذلك الدراسات الطبيعية القائمة على المشاهدة فانها تقوم على الأساس نفسه وأما مايتبادر إلى الذهن من أن هذا النوع من المعرفة خاص بطائفة من الناس على حين أن العلوم الطبيعية لا يختص بها فريق من الناس دون فريق فينقضه هؤلاء بأن هذا الطريق مفتوح أمام الناس جميعا ، وأنه ينضى بمن يسلكه إذا كان مخلصا صادق العزيمة ، غير منقوص المواهب إلى حالة الشهود والكشف المشار إليه آنفا . ومدد المتصوفة فى كل عصر وأفق موصول غير مقطوع .

وهذا الصراع القديم المسمى بالصراع بين العلم والدين ليس فى الحقيقة إلا صراعا بين طريقين من طرق العلم طريق النظر وطريق الإدراك المباشر فالفلسفة بالنسبة لعالم ما وراء الطبيعة تمثل النظر العقلى والدين والتصوف يمثل الإدراك المباشر وقد سادت الفلسفة فى الغرب كما كان من حظ الشرق أن يظهر فيه الأنبياء والمتصوفون وقد ظل الغربيون قرونا يعترفون بطريق النظر العقلى ويعتصمون به ويعدونه مفخرة الغرب ويتحاشون الطريق الآخر وكثيرا ما كان من بين بواعثهم الصريحة أو الخفية أنه طريق شرقى ولكن ما أحدثته البحوث العقلية من فوضى فى الميتافيزيقيا والأخلاق والسياسة بل والعلوم الطبيعية نفسها وما ترتب على ذلك من صراع دام بين تلك المذاهب كالصراع الذى نشب بين الفاشية والديموقراطية والشاب الآن بين الشيوعية ونظام رأس المال قد حمل كثيرا من المفكرين على أن يعيدوا النظر فى الموقف وكان من نتيجة ذلك أن

زايلهم كثير من تعصبهم القديم فبدأ فريق منهم يرى فى تناقض المذاهب الميتافيزيقية والأخلاقية والسياسية دليلا على عجز العقل عن الوصول إلى الحقيقة وحاجة الانسانية إلى الاستفادة من أسلوب الادراك الروحى المباشر .

وقد أخذت هـذه النزعة صورا مختلفة فمن مظاهرها نشوء ميل قوى نحو الدين والحياة الدينية حتى بين كبار المثقفين وقادة الفكر فى الغـرب ومن ثمرات هذه النزعة كتاب اليات الشاعر الانجليزى الكبير الذى سماه « المجتمع المسيحى » .

وإلى جانب هذه النزعة يوجد فى جو التفكير الفلسفى اتجاه قوى نحو المبادىء الدينية فقد نشط المذهب المثالى فى أوربا وأمريكا فى السنوات الأخيرة بعد عصر طويل سادت فيه الفلسفة المادية والمذهب المثالى كما هو معروف نوع من الفلسفة النظرية تقرر المبادىء الدينية العليا بأدلة فلسفية بحتة وزعيم هذه الحركة فى أمريكا الآن هو الأستاذ ايرنست هكنج .

أما الحركة الجديدة الطريفة فتهتم بالدين والتصوف كطريق من طرق العلم يختلف عن طريق الفلسفة والنظر فبينما يفكر الفلاسفة و يصوغون سلسلة طويلة أو قصيرة من المقدمات ليصلوا إلى نتيجة لم يروها ولن يروها رؤية مباشرة إذا بالمتصوف الذى صقلت روحه العبادات وحياة الزهد والتقشف يلمح هذه الحقيقة لمحا أو يراها مباشرة كما يرى الانسان كل ما تقع عليه عينه من مظاهر الطبيعية . ومن هذا الفريق من المفكرين من بدأ يؤمن بهذا الطريق و يدعوا إلى سلوكه كجيرالد هيرد بل منهم أخذ فعلا يسلك إلى العـلم سبيل التصوف والتقشف . وآخر ما عرفته من أنبائهم أن الأستاذ رادا كرشنان أستاذ الفلسفة الهندية باحدى جامعات انجلترا أنشأ معسكرا يجمع شتات هذا الفريق وأخذ يدربهم فعلا

على حياة التصوف وكان من بين أفراد هذا المعسكر الأديب العالمى الشهير الدس هكسلى .

ولست بحاجة إلى أن أقول أن هذا الذى حدث لهؤلاء المفكرين الأوربيين هو الذى حدث للغزالى فقد انتهوا إلى مثل ما انتهى إليه من أن العقل وحده لا يكفى ، وأن الطريق إلى المعرفة هو طريق الانقطاع إلى الله ، والتماس الإلهام منه ، وقد أقدموا على سلوك الطريق الذى سلكه الغزالى نفسه للغاية نفسها .

obeikandl.com

٣ — النظم الكونيه

تتجه الفلسفة والعلم معا كما سبقت الاشارة اليه إلى معرفة النظم الكونية ، ولا شك أن الفلاسفة والعلماء لم يفكروا فى البحث عن هذه النظم ألا بعد أن أيقنوا أن الكون ليس خاليا من النظام وأن ما يحتشد فيه من حوادث وكائنات يرتبط بعضه ببعض بروابط كونية وثيقة .

والواقع أن كل إنسان يأخذ فى اكتشاف هذه الروابط فى الساعات الأولى من حياته ثم يستمر بعد ذلك فى عملية الكشف . فاذا كان الطفل يبدأ بادراك ما يحيط به من أشياء ، فانه لا يلبث أن يشعر بما بينهما من صلات ، فيدرك أن النار تحرق وأن الريح تهز ذوائب الأشياء وأن الماشية تأكل البرسيم وغير ذلك من الروابط الأولية .

وأول ما يبدو لنا من هذه الوجود هو الجزئيات المختلفة من أرض وسماء وحيوان ونبات ، فهى أمور ظاهرة تقع عليها الحواس مباشرة ، فنحن نرى النجوم والبحار والجبال والأشجار والحيوانات التى تكتظ بها البيئة ، ولكن الكون يتألف من كائنات وروابط تربط بين هذه الكائنات : فالحصان مثلا يأكل البرسيم والأسد يفترس اللحوم والريح يسوق السحاب والأجسام تتجاذب والقمر يجذب مياه المحيط فيحدث المد والجزر وزوايا المثلث تساوى قائمتين .

وإذا كانت الأشياء نفسها ظاهرة للعيان فان ما بينهما من روابط ليس كذلك ، فنحن لا نرى الجاذبية بين الأجسام ولا نرى المساواة القائمة بين مجموع زوايا

المثلث والزوايتين القائمتين لأن الجاذبية والمساواة نسبة خفية وإن كان من الممكن أن نرى طرفى النسبة .

والوقائع أن النسب التى تربط الأشياء بعضها ببعض كثيرة لاعددلها وكثير منها واضح لاخفاء فيه . فيكفى أن يرى المرء طرفى النسبة حتى يحكم بينهما فمثلا يكفى أن نرى الهرمين لنشعر بالنسبة بينهما ونقرر أن هرم خوفو أكبر من الهرم الذى يليه ويكفى أن نرى الحطب فى النار لنقرر أن النار تحرق . على أن بعض النسب خفى ليس من السهل أدراكه كالجاذبية مثلا فقد عاشت البشرية قرونا طويلة قبل نيوتن دون أن يخطر لواحد منها أن هناك تجاذبا بين الأجرام وظل السر دفينا حتى جاء نيوتن وقدر له أن يستخرجه ويثبته ، وكذلك بقيت النواميس الطبيعية والرياضية والنظريات الفلسفية محجوبة عن العقول والافهام حتى جاء من قدر له أن يعثر عليها وتم ذلك بعملية التفكير .

والنقطة الهامة هى أن نتذكر طبيعة ما يحدث فى عملية التفكير . فهذا الكون الماثل أمامنا فيه أشياء تقع عليه الحواس وفيه نسب قائمة بينهما لا نستطيع رؤيتهما ولكنها فى أثناء عملية التفكير تتكشف لنا فنشعره بها وندركها ونعبر عن هذه الرؤية بعبارة طويلة أو قصيرة ولكننا لا نسترسل فى الثقة بصحة ما نرى فلا نسميه حقيقة بل ندعوه فرضا ثم نشرع فى تحقيقه .

إذا الفلسفة والعلم يفترضان وجود عنصر خاص فى الكون يتخذان منه هدفا لسعيهما وغاية وهذا العنصر هو عنصر النسب والروابط أو القوانين والنظم .

والوقائع أن الوجود يحمل طابع النظام . فهناك نظام دقيق يقوم بين الأجرام السماوية هو نظام الجاذبية وهناك نظام آخر كنظام تمدد الأجسام بنسب متفاوتة

وغير ذلك من النظم وبعضها عام كنظام تمدد المعادن مثلا فكل حرارة تمدد كل معدن و بعضها خاص

وهذه النظم الدقيقة التى يخضع لها سير الحوادث فى الكون ولا يتخطاها هى سر الوجود الخفى . وهى فى الواقع من الدلائل الواضحة على أن الكون يخضع لنظام دقيق محكم صاغة عقل كبير . فهو كون معقول ذو أوضاع معقولة يتسنى للعقل أن يفهما و يصل اليها .

obeikandl.com

الفصل الرابع

أصول التفكير النفسية

الشك والتشكيك

تمهيد :

قد ينتقل الناس عن الموروث من العقائد والتقاليد ، ولكنهم لا ينتقلون عنها دفعة واحدة ، فان العقائد الموروثة تقبض على العقول بيد من حديد ، فليس من السهل التفلت من قبضتها أو التحرر من سلطانها ، ولا يتم الخلاص من أسرها إلا تدريجيا و ببطء .

والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى خطوة الشك ، وهى مرحلة هامة جداً ، فهى بداية الحرية العقلية ، وفاتحة عصور التجديد الفلسفى والعلمى .

و يظهر الشك فى ظروف مختلفة : فمن ذلك أن الإنسانية قد تعتنق عقائد ساذجة أقرب إلى تصور الطفل منها إلى تفكير الرجل الناضج ، ومع ذلك لا يستريب أحد فى صحتها ، ثم يجد ما يغير الحال ، فقد تظهر طبقة مثرية مفكرة ميالة إلى الإسفار ، فترى شعوباً أخرى ذات عقائد مخالفة ، وتلاحظ أنها مع ذلك مطمئنة إلى عقائدها غير متهمة لها ، وهنا تبدأ موازنة خفية صامتة ، فيوازن المرء بين عقائده و بين هذه العقائد التى هبط عليها فى مواطنها ورأى من ثقة أصحابها بها مالا يقل عن ثقته هو بعقائده ، وفى هذه الفترة قد يداخله الشك فى صحة عقائده ، أو صحة عقائده وعقائد غيره . فيفقد طمأنينته وراحته النفسية

obeikandl.com

وإذ ذاك تتفرق بالناس الطرق : فمن الناس من يبادر إلى قبول الجديد ، ومنهم من يتراجع إلى عقائده الموروثة ويذب عنها بقلبه ولسانه ، وقد يظهر من بينهم من يرفض هذه وتلك ويجنح إلى الاستقلال ثم يأخذ فى التفكير .

ولقد رأيت فى أثناء مقامى فى إنجلترا نماذج حية لبعض هذه الحالات النفسية ، إذ يجىء الطالب من مصر وهو مؤمن أشد الإيمان بصحة كثير من الأوضاع الاجتماعية المصرية ، فاذا رأى شعباً برمته يؤمن بأوضاع مخالفة ويعيش طبقاً لها داخله العجب . كأنما كان قد قدر استحالة أى وضع اجتماعى آخر فأدهشه أن يراه حقيقة واقعة ، وإذ ذاك يستنكره وينحى عليه باللائمة . ثم تضطره ظروف حياته الجديدة أن يهادنه وإلا استحالت عليه الحياة ، وفى أثناء هذه المهادنة يبدأ الصراع بين عقيدته الاجتماعية القديمة ، وهذا الوضع الاجتماعى الجديد . وكثيراً ما رأيت مظاهر انحلال الثقة القديمة وبوادر الشك ، ثم التحول التدريجى نحو النظام الغربى . وقد يحدث هذا أحياناً بتطرف ، فيغلو المرء فى حب الأوضاع الغربية وينقلب ساخراً من الأوضاع الشرقية التى كانت إلى عهد قريب موضع إيمانه وحبه .

ومهما يكن من شىء فى مثل هذه الظروف ظهرت طلائع البحوث الفلسفية فالتاريخ يروى لنا أن سكان يونيه كانوا على اتصال وثيق بمصر ، وبالكلدانيين وسواهم من سكان الشرق المتوسط ، وأن هذا الاتصال الذى بدأ اقتصاديا تناول الناحية الثقافية أيضا ، فقد اطلع اليونانيون على ديانات مصر ، وبابل ، وسواها وعرفوا الكثير من علوم تلك الشعوب وفنونها وصناعاتها ، ونقلوا الكثير من ذلك إلى بلادهم ، فكانت هى البذور الخصبة التى تولدت منها المدنية الاغريقية

و يعنى تاريخ الفلسفة بجانب خاص من هذه الصلة ، فهو يحدثنا أن كثيراً من كبار الفلاسفة اليونانيين قد زاروا مصر وتعرفوا إلى كهنتها ، وحرصوا على معرفة دينها وعلومها ، وفى مقدمتهم « طاليس » نفسه ، واضع أساس الفلسفة الاغريقية .

وقد كانت الديانات والعلوم والفنون الشرقية التى شاهدها « طاليس » وسواه من فلاسفة الاغريق فى مصر وغيرها من بلاد الشرق مخالفة لكثير من عقائد اليونان وعاداتهم وشرائعهم ، فكان من الطبيعى والمتوقع أن يساورهم الشك فى صحة الكثير من عناصر التراث الثقافى القومى .

ولسنا نعنى بهذا أنه يكفى أن يرى الفرد ما يناقض عقائده ليندفع إلى الشك فيها ، فهذا عامل واحد من عدة عوامل لا بد من اجتماعها ، فلابد أيضا من قدر من الذكاء العالى . فقد دلت التجارب على أنه قد تلتقى الثقافات المتضاربة فى عقل الفرد دون أن تبدو عليه أعراض الشك ، بل دون أن يشعر بالتناقض بينها ، فهى تقيم فى عقله جنباً إلى جنب ، متهادنة لا صراع بينها ولا تضارب ، وإنما يحدث هذا إذا كان حظ المرء من الذكاء نزراً . أما الأذكياء : فلا تصطلح فى عقولهم المتناقضات ، ولا تتهادن الأضداد ، فما هو الا أن يروا التناقض حتى ينشب الصراع و يقع الشك .

وقد ظهر الشك مرة أخرى فى اليونان القديمة تحت ظروف مشابهة ، فان الحركة الفكرية التى بدأها « طاليس » أدت إلى ظهور نظريات كثيرة متناقضة فى تفسير الكون ، فهذا يقول : ان مادته الأولى هى الماء يتحول الى أرض ، نار وهواء ، وذاك يحدث أنها الهواء يتخلخل فيكون نارا و يتكاثف فيصير ماء ثم

أرضاً ، وثالث يرى أن هذا الوجود وما فيه نشأ من العناصر الأربعة ، تتصل وتنفصل بفعل ماسماه الحب والبغض ، وسواه ينادى بأنها الذرات تلتقى وتفترق وهلم جرا .

هذا إلى أن ازدياد الصلة بين اليونانيين ومن جاورهم من شعوب الشرق قد أثار الشبهات حول النواميس الأدبية السائدة فى البلاد ، فقد انكشف لهم أن الأخلاق والآداب تختلف من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب .

فى هذا الجو المملوء بالمتناقضات ، والذى اختفى فيه وجه الحقيقة واستحال الوصول إلى رأى قاطع فى تفسير الكون أو تحديد أصول الأخلاق ، استولى الشك على الطبقة المثقفة فى البلاد واستحوذ على النفوس اليأس من الوصول إلى الحقيقة فى معضلات الوجود والأخلاق .

وهى ظاهرة نفسية سيئة الأثر ، ثم تطور الموقف إلى ماهو أسوأ ، فقد ظهرت نظرية فلسفية متطرفة ، نادى أنصارها بأنه لا سبيل إلى معرفة الحقيقة ، وقدموا لتأييد دعواهم عدداً غير قليل من الأدلة ، فعم الشك وطغى سيل الفساد ، وقد عرف هذا العصر فى تاريخ الفلسفة بعصر السوفسطائيين .

وهذا الموقف يختلف اختلافا كبيراً عن الموقف الثقافى فى عصر « طاليس » فان الأمر إذ ذاك لم يزد عن مجرد الشك ، فلم تظهر بوادر اليأس من المعرفة ، ولم يحاول أحد أن يؤمن بالشك أو يبرره .

والفرق بين الموقفين من ناحية الأثر العلمى كبير ، فقد كان الشك فى الموقف الأول باعثاً على التفكير والإنتاج .

أما نظرية اليأس من العلم والعجز عن المعرفة فما كان ولن يكون لها إذا عمت إلا أثرها الطبيعى وهو : وقوفه حركة البحث والتنقيب العلمى .

ولكن كان من حسن الطالع : أن عصر الشك والعقم السابق الذكر لم يطل فلم يرع الناس ، وهم فى تلك الحيرة العقلية إلا شخصية سقراط الخالدة ، وقد ظهرت وشرعت فى محاربة الشك ودعاة اليأس العلمى ، ووضعت منهج البحث .

وقد استطاع « سقراط » فى أثناء حياته الحافلة أن يوقظ العقول من غفلتها وأن يدرب عدداً من تلاميذه على أساليب البحث والنظر، فوضع بذلك أساس النهضة العلمية والفلسفية الكبرى فى اليونان القديمة ، ولم يمت حتى كانت روح البحث العلمى ، وطريقته فيه قد تأصلت جذورها فى نفوس عدد من أتباعه ومريديه ، وقد شاءت الأقدار أن يكون من بينهم « أفلاطون » الذى استخدم أسلوب أستاذه فى تنمية بذور الفلسفة والعلم التى بثها سقراط فى عقول تلاميذه .

ثم نهض أرسطو تلميذ أفلاطون بعبء البحث والتنقيب حتى تم له وضع فلسفة حافلة قدر لها أن تسود عقول البشر فى الشرق والغرب قروناً متطاولة .

ومهما يكن من شىء ، فان شك السوفسطائيين على رغم ما اقترن به من يأس لم يلبث أن أفسح الطريق لحركة إنتاج وبحث علمى وفلسفى كما حدث فى عصر الشك السابق .

ولما آذنت القرون المتوسطة بالزوال و بعثت الآداب الإغريقية والرومانية ، وأقبل الناس فى جميع أرجاء أوربا على تدارسها رأوا شيئا مخالفا فى روحه والكثير من تعاليمه لما ألفوه من العقائد الكنسية ، فالفلسفة والعلم اليونانى كما هو معروف يعتمدان على البرهان لا الوحى ، والنظرية الكونية اليونانية وبخاصة المادية منها تخالف ماتنشره الكنيسة بين الناس من تعاليم ، ولسنا بحاجة إلى الإشارة مرة أخرى إلى ماتجره مثل هذه الحالة وراءها من شكوك وما يترتب على تلك الشكوك من نتائج ، ولكننا لا نرى بدا من الالماع إلى بعض معالم هذا الحادث الثقافى الخطير الذى امتد أثره إلى العصر الحاضر .

كانت الفلسفة الارسطية فى صورة من صورها هى السائدة فى الجو الثقافى فى القرون المتوسطة فكان علم ماوراء الطبيعة المأثور عن ارسطو ومنطق ارسطو وطبيعيات ارسطو محل ثقة الجميع . ومن ثم اتجه الشك حينما ظهرت بوادره إلى تلك الفلسفة بفروعها المختلفة وانهالت عليها الاتهامات والمهاجمات .

فمزا الفلاسفة ركود البحث العلمى فى القرون المتوسطة إلى منطق ارسطو و بذلوا جهداً جهيداً فى التدليل على أن هذا المنطق لايحتوى على شىء من مناهج البحث العلمى الطبيعى أو الرياضى . ونادوا بأن قياس ارسطو ليس فى مقدوره أن يقوم بأكثر من تطبيق القواعد العلمية العامة التى تم اكتشافها فعلا على الحالات الخاصة التى تدخل فى نطاقها . ثم شرعوا يبحثون عن مناهج البحث الصحيح . وقد قام بهذه الحركة المباركة بيكون وديكارت . أما بيكون فقد اتجه إلى البحث عن أصول منهج الاستقراء فوفق فى ذلك إلى حد كبير . وأما ديكارت فكان اتجاهه إلى الكشف عن أصول البحث الرياضى وقد حصل هو أيضا على قدر غير منزور من النجاح فى تلك المحاولة . ثم تصدى غاليليو لطبيعيات ارسطو فأثبت بالتجارب الحسية فساد بعض النظريات التى ذهب إليها . وكذلك انصرف عدد من الباحثين العلميين إلى نقض النظريات الفلكية واثبات ان الشمس مركز الكون وان الأرض تدور حولها .

وهكذا قارنت حركة الشك المذكورة حركة تجديد عام تناول الفلك والطبيعيات والمنطق والفلسفة واستمرت هذه الحركة فى نشاطها إلى يومنا هذا . فوضعت أسس العلوم الحاضرة وكشفت عن نواميس الكون المختلفة .

ولم تنته بذلك عصور الشك ! فما زال الشك يطالع أوربا من حين لآخر : ويعد العصر الحالى عصر شك عام فى القارة الأوربية والأمريكية معاً . وقد ظهرت

بوادر هذا الشك فى الأفق السياسى حينما أثبتت التجارب أن الديموقراطية قد عجزت عن تحقيق ما نيط بها من آمال فى تخفيف آلام الطبقة العاملة و إصلاح حال الشعوب التى تعيش تحت ظلالها .

وقد أدى هذا إلى حركة تجديد انتهت إلى وضع مذاهب سياسية جديدة فى روسيا وألمانيا و إيطاليا و إلى محاولة جدية لإنقاذ الحياة الديموقراطية والنظام الديموقراطى فى انجلترا وأمريكا وفرنسا . ومن أكبر زعماء هذه الحركة الإصلاحية فى إنجلترا ولز و برنارد شو وسكرى وجود وجرالد هيرد والدس هكسلى وجوليان هكسلى وسواهم .

والشك حقيقة واحدة تخضع فى الشرق والغرب والماضى والحاضر لنواميس واحدة . ومن ثم كان لنا أن نتوقع أن يكون تاريخ الشك فى الشرق مشابها إلى حد بعيد لتاريخه فى الغرب .

والواقع أن العالم العربى أو الصفوة من ابنائه قد عانت حالة الشك فى أكثر من عصر من عصور التاريخ العربى ولا نحب هنا أن نستقصى تاريخ الشك عند العرب ولكننا نكتفى بشىء من الحديث عن بعضه . فلن نحاول أن ندرس ظواهر الشك التى بدت فى الطبقة المثقفة من العرب قبيل عصر البعثة . ولكننا لا نجد بدا من أن نعرض للأثر الفكرى لالتقاء أصول الاسلام والثقافة اليونانية فى البيئة العربية فى آخر العصر الأموى وصدر الدولة العباسية : فمن المعروف لكل من درس تاريخ الأمة العربية إنها عنيت بنقل كثير من الثقافات الأجنبية الى لغتها العربية .

وقد بدأت تفعل ذلك فى آخر العصر الأموى ، ثم اندفعت فى ذلك الى أبعد مدى فى صدر الدولة العباسية . ولما دخلت الثقافات الأجنبية عامة والثقافة

اليونانية خاصة فى الممالك العربية التقت ثقافتان مختلفتان : الثقافة الاسلامية القائمة على الايمان ، والثقافة اليونانية التى تعتمد على النظر العقلى . وإذا تذكرنا ما قدمنا عن مثيرات الشك استطعنا أن نتوقع النتيجة الطبيعية لالتقاء هاتين الثقافتين . والواقع أن بوادر الشك لم تلبث أن ظهرت فى بغداد وما حول بغداد كما ظهرت طلائع الشك فى أوربا فى صدر عصر النهضة على أثر الاتجاه الى دراسة الآداب اليونانية والرومانية فيها .

وقد ظهرت فى العالم العربى تيارات فكرية مختلفة كنتيجة لهذه الحالة الطارئة فظهرت بين الأدباء والعلماء طائفة من الشكاك المشككين . من فى الرعيل الأول منهم بشار بن برد ومن متأخريهم ابن الراوندى وأبو العلاء المعرى : وهو فيلسوف الشك فى الاسلام .

وهناك من داهمة الشك فلم يقف عنده راضيا به مطمئنا إليه بل حاول أن يبنى عقائده من جديد على أساس وطيد الأركان . والمثل الأعلى فى هذا هو الغزالى ، وقد بنى عقائده على أساس أن التصوف هو الأساس السليم للمعرفة والعلم بما وراء الطبيعة .

وثمة جماعة من المسلمين استجابوا لجو الشك استجابة خاصة : فقد شعروا بأن الايمان بدا يتزعزع فى صدور بعض أفراد الطبقة المثقفة ، وأن سبب ذلك منطق الفلسفة اليونانية الدقيق ، فاختطوا لأنفسهم خطة أخرى . كانت العقائد كالأحكام الشرعية تستمد من القرآن بوجه خاص . فرأوا أن يستخلصوها من هذه النصوص و يستعينوا بأسلوب النظر العقلى الذى جاءت به الفلسفة اليونانية ، على إلباسها ثوبا نظريا دقيقاً ، فكان علم التوحيد نتاج هذه الحركة

وهى حركة بناء وتجديد اعتمدت على الأسلوب الفلسفى الذى ظهر إذ ذاك فى العالم العربى ، إذ كان هدفها قيادة الناس إلى العقائد على أساس النظر الفلسفى القويم .

ومن هنا بدأت تظهر مدارس علم الكلام ، كالمعتزلة والأشعرية وسواهم .

على أن نفراً من المسلمين لم يترددوا فى أن يسيروا مع الفلسفة إلى مدى أبعد وهؤلاء هم فلاسفة المسلمين ، أمثال ابن سينا ، والفارابى وابن رشد ، فلاشك أن نظرياتهم فى ظهور العالم ، وفى الخلود ، لا تتفق وصريح الدين كما أحس بذلك المسلمون فى الشرق ، وكثير من فلاسفة أوربا فى القرون المتوسطة ، أمثال توما الإكوينى .

وشبيه بهذا ما حدث فى الممالك الإسلامية فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فقد كانت الممالك العربية قد تغلبت على أثر الفلسفة اليونانية وتناستها ، وعادت إلى ضرب من التدين الضيق ، فلم يرع العالم العربى إلا أوربا تطلع عليه بفلسفة جديدة ، وعلوم طبيعية جديدة ، ونظرة إلى الحياة جديدة ، وأخذت تنشر كل ذلك فى الممالك العربية ، وكانت مصر من أسبقها إلى تقبل المدنية الغربية والثقافة الأوروبية .

وهنا حدث مرة أخرى ما حدث قبل ذلك من شك فنهضت طائفة من كبار المفكرين تحاول التوفيق بين القديم والجديد ، واستخلاص صورة جديده للعقيده والنظم الإسلامية وزعيم هذه الجماعة و باعث هذه النهضة هو المرحوم جمال الدين الأفغانى الذى خلف وراءه عدداً من التلاميذ الأفذاذ لموالاه العمل فى هذا السبيل ولعل أعلاهم اسما ، وأبقاهم أثراً وذكراً ، هو المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكن لم تلبث هذه الطبقة أن انقرضت ، ولم يظهر فى البلاد من يسد مسدها

ويقوم بمهمتها . ولما كثر إيفاد البعوث إلى أوربا فى السنوات الأخيرة وبخاصة فرنسا ، أشرب عدد من أولئك المبعوثين فى فرنسا روح الشك وعادوا بها ، وقد قبع بعضهم فى عقر داره ، وجهر بعضهم بشكه ، ومارس مهمة التشكيك فى كثير من الأحرار .

* * *

وقد أثبتت بحوث علم النفس الحديث أن الشك ليس حال شاذة ، وأن الفرد بوجه عام يمر بفترة شك طويلة أو قصيرة ، فحياة كل منا أدوار متعاقبة وكل دور منها يختلف عما سبقه فى خصائصه النفسية : الفكرية والوجدانية والنزوعية فهناك دور الطفولة الأولى ، ودور الطفولة الثانية ، وينتهى الأول ، ويبدأ الثانى فى نحو السابعة من العمر ويلى ذلك دور البلوغ ، وتقع بدايته فى نحو الثانية عشر وقد أثبتت بحوث علم النفس أن من خصائص دور الطفولة الطاعة والإيمان ففيه تتوطد العقائد الدينية والاجتماعية ، وتستقر السلطة الوالدية ، أما دور البلوغ فيبدأ بنزعة قوية إلى الاستقلال والتمرد على السلطة من ناحية ، ثم الشك فى العقائد والتقاليد من الناحية الأخرى ، فتلميذ المدرسة الثانوية يتعرض لانهيار الكثير من عقائده واستيلاء الشك على نفسه .

وسبب ذلك غير خفى ، فمرحلة البلوغ مليئة بالأحداث النفسية والجسمية ، ومن أهم تلك الأحداث : نمو الذكاء نموا سريعاً ، كما دلت على ذلك بحوث الذكاء ، فتعلو قدرة التلميذ على التفكير والنقد . وإذا تذكرنا أن التلميذ فى هذا الدور يدرس العلوم الطبيعية ، والرياضة النظرية ، وأن هذا النوع من الدراسة إذا اتبعت فيه طريقة التفكير العلمى نبه ذكاء الناشىء ، وشحذ من غرب منطقه

obeikandi.com

استطعنا أن ندرك سبب ما يعتريه فى هذا العهد من شكوك قوية أو ضعيفة فى الموروث من العقائد والنظم ، فالتقاء العقائد والعلوم الطبيعية والرياضية فى فترة يعلو فيها الذكاء و يتنبه المنطق وتزداد ثقة الفرد بنفسه ظروف تكفى لإثارة الشك فى نفوس الشباب القليل التجارب ، الشديد الاعتداد بالنفس .

والآن وقد استطعنا أن نقوم بعرض تاريخى ونفسى موجز لعملية الشك ، يحسن بنا أن ننتفع بما كشف عنه هذا العرض من حقائق فى دراسة طبيعة الشك والمكان الذى يجب أن يشغله فى حياة الفرد والمجتمع .

ونبدأ من ذلك بدراسة حقيقة الشك وتحديد أسبابه ونتائجه .

obeikandl.com

ب ــ طبيعة الشك

ما أظنني الآن بحاجة إلى الإطناب فى شرح أسباب الشك العامة فقد تبين من العرض التاريخى والنفسى السابق بصورة واضحة لا لبس فيها أن التقاء الثقافات المتباينة والنظريات المتناقضة من العوامل الفعالة فى إثارة الشك.

كما اتضح أيضا أن مرحلة البلوغ مرحلة يتداعى فيها الموروث و يثور الشك.

وهـذا ناموس طبيعى يستغله جماعة المشككين. فهم يعمدون إلى عرض النظريات المناقضة للعقائد المتوارثة بشكل قوى جذاب واثقين بأن الشك سيكون النتيجة الطبيعية المحتومة

أما نتائج الشك فربما كانت أحرج من أسبابه إلى شىء من البيان والإسهاب

ومع ذلك فقد اتضحت صورتها العامة مما سبق فقد رأينا كيف دفع الشك طاليس وسقراط وعلماء عصر النهضة وفلاسفته إلى التفكير والتجديد فالشك لا تعرفه الطبيعة البشرية كشىء مستقل مقطوع الصلة بما سواه ، ولكنه يظهر فى العادة كجزء من عملية نفسية مركبة تبدأ بالشك وتنتهى با كتشاف فكرة خاصة وتفصل فيما بين الشك والا كتشاف عملية نفسية طويلة دقيقة ينقب فيها العقل فى جميع الزوايا عن المعلومات السابقة ويقلبها ظهراً لبطن ثم تنهض من هـذه الأشتات صورة جديدة تمثل فرضاً علميا أو حلا لمعضلة من نوع ما وقد يلى ذلك اختبار دقيق للفكرة الجديدة ينتهى باثبات صحتها أو ظهور فسادها .

فالشك إذاً ليس حقيقة نفسية مستقلة ، وإنما هو جزء من عملية التفكير ودور من أدوارها ومهمته واضحة : فهو الذى يدفعنا إلى التفكير والبحث .

وينضح هـذا إذا تذكرنا أن الشك حالة قلق وأن الرجـل إذا سلب الإيمان بما يعتقد وداخله الشك فيه زايلته الطمأنينة والراحة النفسية ، فاندفع إلى البحث لتعاوده الطمأنينة والراحة النفسية المفقودة .

تلك هى مهمة الشك فى الحياة العقلية وهى مهمة خطيرة . فالعصور التى لا يظهر فيهـا الشك يسود الركود حياتها العقليـة ويستولى الجمود على نظمها السياسية والاقتصادية ، ولا يظهر التجديد فى دوائرها العلمية ، فاذا ظهر الشك تبدل الحال فظهرت البحوث العلمية والفلسفية والسياسية والاجتماعية . وكذلك تكون حياة الأفراد فالثقة إذا استولت على عقل الفرد عاش على القديم راضيا به مطمئنا إليه حتى إذا أزعجه الشك تغير حاله فقد ينهض للبحث والتنقيب بعزيمة جديدة وروح يتملـكها حب الحرية والاستقلال .

وبالإجمال فترات الشك جزء طبيعى من حياة الفرد وحياة المجتمع ويتلوها عادة عصور التجديد الفلسفى والعلمى .

وقد كان من الأغلاط القديمـة قبول الفرض الفلسفى حـين ظهوره والثقة منه ، والاطمئنان إليه والوقوف بعملية التفكير عند هذا الحد وربما كان من أسباب ذلك أن الفكر بعـد الجهد المضنى الذى بذله لا يكاد يظفر بفرض جديد حتى يتنفس الصعداء ويعفى نفسه من عناء التفكير . ولـكن الحال تغيرت فى عصر النهضة . فقـد نادت طليعة المحدثين من الفلاسفة والعلماء بضرورة الاستيثاق من صحة الفروض ونصحت بمقابلتها بالشك والضن عليهـا بالثقـة ثم التجرد لاختبار صحتها بوسائل الاختبار العلمى المختلفـة فان أسفر الامتحان عن صحتها قبلت وإلا ردت غير مأسوف عليها .

من وظائف الشك إذا أن يكون باعثا على تحقيق الفروض . وهى وظيفة هامة

فالفكرة الجديدة لا تنقلب جزء من العلم أو الفلسفة إلا إذا قام الدليل التجريبي أو النظري على صحتها ولم يبق ثمة مفر من قبولها .

للشك في عملية التفكير إذا وظيفتان . فهو باعث على التفكير و باعث على التحقيق وكلاهما ضروري للعلم .

فالشك إذا عنصر فكري هام فهو في الدافع إلى البحث والتفكير والمرحلة الأولى في حياة المذاهب الفلسفية وكثير من النظريات العلمية ، وهو أيضا مصدر التثبت والاستيثاق العلمي . فهو الذي يحجز الفيلسوف والعالم الحديث عن الخطأ الذي وقع فيه قدامى الفلاسفة والعلماء ، وهو المبادرة إلى اعتناق الفكرة الجديدة التي يقودهم إليها التفكير دون توقف أو تريث ودون استيثاق وتمحيص . وقد أصبح جزءا من الأسلوب العلمي الحديث الشك في الفروض عند ظهورها بدل الركون إليها والإيمان بها .

فوظيفة الشك الطبيعية إذن أن يكون جزءاً من عملية التفكير لا شيئاً مستقلا وأن يقوم فيها بمهمة الباعث والناقد معا ولعل أروع مثال لذلك هو حياة ديكارت :

شك ديكارت شكا عاما جارفا ، فلم يرتض أن يتمرغ في حمأة الشك مستطيبا له متلذذاً به بل نزعت به همته في الحال الى طلب المعرفة والتماس العلم ، فشرع يبني عقائده بأسلوب النظر و بدأ بتحديد أسلوبه الصحيح فانتهى به تفكيره الى أن المثل الأعلى له هو الأسلوب الرياضي الذي يبدأ باليديهي و يستخلص منه نتائجه ، فاتخذ هذا الأسلوب أداة لبحوث الفلسفة .

والآن وقد عرفنا وظيفة الشك وأنه جزء من عملية التفكير يقوم فيها بدور الدافع والناقد فمن واجبنا أن نستخدمه في المدرسة والحياة لهذه الغاية فعلى المدرسة

الثانوية أن تعاون التلاميذ على استرجاع عقائدهم من جديد ، ولكن لا من طريق الإيحاء الذى كان يستخدم فى دور الطفولة الثانية ، فهذا أسلوب محقق الفشل فى هذا الدور ، بل من طريق آخر مختلف كل الاختلاف وهو : طريق التفكير الذاتى . وينبغى ألا ننسى أن الشك قد مهد الطريق وأعد عقل الناشىء لهذه العملية .

والطريق السوى هو أن نهيىء للتلميذ المواد الضرورية المختلفة ونحمله على التفكير فيها ثم نرعى هذه العملية حق رعايتها ليصل التلميذ بتفكيره الخاص الى التخلص من شكوكه وبناء عقائده على أساس وطيد من النظر الصادق والبرهان القاطع .

ومهما يكن من شيء فهذا الشك الطبيعى الذى اكتشفه علم النفس الحديث لا يجوز أن يهمل بل يجب انتظاره والإنتفاع به عند ظهوره فى إقامة إيمان جديد قوى الدعائم وطيد الأركان . وقد دلت التجارب على أن نتيجة الإهمال هى شك مزمن . وهى العاهة النفسية التى يُعطّل فيها الشك عن أداء مهمته وينقلب غاية لا وسيلة .

وينبغى أن نتذكر أن حركة التشكيك فى مصر والشام والعراق قد أثرت فى نفس الشباب العربى تأثيراً أعمق مما نظن بكثير فقادته فى طرق الفوضى الفكرية والحيرة العقلية ثم تركته هائما فى بيداء الشكوك دون أن يجد من المدرسة أو سواها عونا له على النجاة من شرورها :

أن دور الشباب هو المرحلة التى يتكون فيها عقل الرجل . تتكون فيها آراؤه وعواطفه وعاداته ، فهو مرحلة خطيرة جداً : هو نقطة التحول فى حياة الفرد . فلا بد لنا من أن نستعرض العوامل الاجتماعية والثقافية المختلفة التى

بتعرض لها فكر الشاب ووجدانه فى ذلك الحين . ولا بد لنا من السيطرة على الموقف لا لنمنع الحرية الفكرية ولكن لنقاوم أسباب الاستهتار . ونقود عقل الطفل من بعيد فى طريق الأمن والسلامة الفكرية .

وليس أقل من ذلك خطورة أن نعود شبابنا الشك فيما يعن لهم فى ساعة البحث من حلول وأفكار وأن ندربهم على حب الاستيثاق . فمن طباع الشباب عامة والشرقيين منهم خاصة التسرع فى إمضاء الحكم ومجاوزة الحد المعقول فى التعميم ، فعلينا أن نشعرهم بالحاجة المنطقية القصوى إلى تحقيق الكثير مما يخطر لهم من الآراء تحقيقا علميا وأن نعطيهم فكره عن طرق التحقيق العلمى وتدربهم على ذلك تدريبا كافيا .

واذا كان من واجبنا أن نهتم بالشباب فى دور شكه المحتوم فمن واجب المجتمع أيضا أن يهتم بالجمهور إذا أصبح الشك عرضا عاما ومرضا متفشيا . ويقع هذا الواجب بوجه خاص على طبقة العلماء القادرين على التجديد .

ومهما يكن من شىء فالافق الثقافى فى العالم الإسلامى خال من البناة المجددين للعقائد الدينية والسياسية والاجتماعية على شدة تفشى الشك وانتشار الحيرة العقلية وتشتد الحاجة اليوم إلى نوعين من المجددين : نوع المجددين الدينيين ، ومهمة هؤلاء هى نفس المهمة التى قام بها واضعوا علم الكلام فى عهد الدولة العباسية ، وإذا كان هؤلاء قد استعانوا بالفلسفة اليونانية فعلى المجددين فى العصر الحالى أن يستعينوا بالفلسفة الحديثة ، وما من شك فى أن التجديد على هذا النحو مهمة شاقة لا تتيسر إلا لمن درس الثقافتين الإسلامية والغربية وشرب من حياضها وعل .

وهناك مكان آخر لمجددين من الفلاسفة يعاونون الشباب على الخروج من حالة الشك أو عدم الاكتراث التى يعيش فيها ، وعلى رؤية العقائد الصحيحة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسة القويمة بالبرهان النظرى السليم .

التشكيك

وبالشك يتصل التشكيك ، والتشكيك عمل ثقافى اجتماعى لابد لنا فى بحثنا هذا من أن نتصدى له ، محاولين الكشف عن طبيعته وصلته بالشك ومكانه فى حياة المجتمع .

وأول ما ينبغى أن نعرض له فى هذه المناسبة هو صلته بالشك ، ويتصل التشكيك بالشك من ناحيتين ، فهو من ناحية سبب من أسباب الشك ، ومن الناحية الأخرى وليد الشك ونتاجه

أما هدفه ومرماه : فبذر بذور الشك فيما استقر فى النفوس من العقائد والآراء ، وذلك أن كثيرا ممن تتزعزع عقائدهم ، وينهار إيمانهم يجدون أنفسهم مدفوعين إلى نشر الشك ، ومواصلة الجهود فى ذلك حتى ينتشر الشك ويتداعى الايمان .

وطائفة المشككين معروفة فى التاريخ الفلسفة والعلم ، وتظهر عادة فى العصور التى تسبق النهضات الفلسفية والعلمية ، فتستغل بوادر الشك والحيرة التى تنشأ حينما تتلاقى الثقافات المختلفة ، أوتتناقض النظريات الفلسفية والعلمية ، والرعيل الأول منهم هم السوفسطائيون ، وهم فريق من الناس ، فريد فى نزعاته ومراميه ، فانهم لم يكتفوا بالشك والتشكيك ، كلون من ألوان الحياة الفكرية ، بل وضعوا فلسفة خاصة لتبريره ، فاستعانوا بما أوتوا من ذكاء على إثبات استحالة الوصول إلى العلم ، وأن الشك ضربة لازب وأمر لا معدى عنه ولا مفر منه .

ومهما يكن من شىء : فهذا وضع مخالف للوضع الطبيعى ، فالطبيعى : أن ينقلب الشك باعثاً على البحث ومحرضاً على التفكير ، فاذا أصبح حالة لازمة كان

ذلك شذوذاً فى الطبيعة وخروجاً عن الوضع السليم . أما تبريره ووضع فلسفة خاصة له فاغراق فى الشذوذ .

ومع ذلك : فيجب ألا نغفل عن قيمة التشكيك ، كعامل ثقافى كبير . فالتشكيك : هو الأداة التى لا غنى عنها لبعث النهضات الفكرية والتطورات الاجتماعية ، وقد قام المشككون للبشرية فى هذا الصدد . خدمات جليلة . وليس من الخفى أنه إذا تراكمت الخرافات وفسدت الأوضاع السياسية والاجتماعية ، كان من العبث أن يحاول المفكر أن يحمل الناس على قبول الجديد من الآراء و النظم قبل أن يقوم التشكيك بعملية الهدم و إزالة الأنقاض .

* * *

فالخطوة الأولى فى التخلص من العقائد الفاسدة والنظم الظالمة هى أن نلقى عليها ضوءاً وهاجاً يظهر عيوبها ، وآثامها النفسية والجسمية ، فان هذا العمل يثير الشك فى صحتها ، و يوقظ العقول المطمئنة إليها من غفوتها ، وهذه الخطوة هى نصف الطريق إلى الإصلاح ، ولعلها أشق من كل ماعداها ، فالإيمان القديم المتوارث حصين منيع الجوانب ، لا يهدمه إلا الهجمات المنطقية المتوالية ، ولا سبيل إلى التجديد إلا بعد القضاء عليه و إزالة أنقاضه .

نستطيع إذن أن نقول : إن التشكيك قوة اجتماعية ، لا غنى عنها لتطور المجتمع ، وأن توجيهه إلى أسس النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفاسدة هو الخطوة الأولى للقضاء عليها .

وتتجلى روعته كقوة هدامة فى انهيار النظام الإقطاعى ، ذلك البناء الضخم

الشامخ ، الذى أيدته الكنيسة وقدسته القرون المتعاقبة تحت حملات فلاسفة الثورة الفرنسية ، وعهدنا قريب بما أصاب الديموقراطية التى شادتها الثورة الفرنسية ، وغنى الناس أكثر من قرن كامل مديحها والثناء عليها ، وكيف انبرى لها كبار النقدة ، فزلزلوا إيمان الشعوب بها ، فلم تلبث أن انهارت فى إيطاليا وألمانيا ، وحل محلها النظام الفاشى والنازى .

النقد والتشكيك إذاً قوة لا يستهان بها ، وهى إذا أحسن استخدامها كانت خير أداة لتطهير المجتمع من النظم الفاسدة والأوضاع السقيمة ، وأعانت الشعوب على السير فى طريق التطور الاجتماعى والسياسى والاقتصادى . ومن ثم كان من المرغوب فيها أن تنهض فى الشعب طائفة من المفكرين الذين يتصدون لنقد النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يجوز لنا أن نعبس فى وجوههم أو نتنكر لهم .

وعندنا من النظم الهزيلة والسقيمة التى أفسدت علينا الحياة عدد كبير جداً ، فاليها يجب أن تتجه جهود النقدة ، والواقع أن مناط الأمل فى التطور الاجتماعى أمران :

أولا : مرونة عقول الشباب وقدرتهم على أن يروا موضع النقص فى التراث القديم ، ومن ثم كان من حسن السياسة الاتجاه إلى الشباب وتأليف كتب مناسبة لعقولهم يكون هدفها نقد القديم ورؤية الجديد ، ولكن القديم الفاسد فقط .

ثانياً : نفر من المشككين ذوى الشجاعة والإقدام الذين يأخذون على عاتقهم مهمة إثارة الأذهان وتحطيم الأوثان ، وذلك بالكتابة والتأليف والخطابة لنقل

الناس من أفق القديم إلى أفق المستقبل والتمهيد للتطور الاجتماعى .

* * *

بيد أن هؤلاء الشاكين المشككين يمثلون عقلية خاصة ، ففى أكثرهم ضرب من الاسراف والغلو ، بل نوع من الجموح . ومن ثم ينقلب النقد فى أيديهم ضرباً من الميل إلى الهدم والتحطيم ، وهم فى سورة نشوتهم لا يتورعون عن مهاجمة أثمن ما فى تراث الشعوب وأعزه عليهم ، وكأنما يعجبهم أن يتألم الشعب ، وأن يمتدّ الألم إلى جميع الطبقات ، وأن يبلغ الألم أقصى الدرجات ، فيتوخون بحملاتهم المتجنية الغالية ما يكون موضع حب الجمهور وتقديره العالى .

ومثل هذا الصنيع إثم اجتماعى كبير ، ففى بعض الناس ميل قوى إلى الشك وارتياح إليه ، والشبان كما أسلفنا يمرون فى أيام الشباب الأولى بدور شك عام فهؤلاء وأولئك تتغذى نزعتهم إلى الشك من تلك الحركة ، فيعم الشك ويقل الإيمان ، والشك شلل ، والإيمان حياة وعمل ، والمجتمع الذى يعيش فى حالة شك يعيش عيشة عقيمة شاذة .

ومن شاء أن ينظر ما يفعله الشك بالأمم والشعوب فلينظر إلى فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية ، فقد اتجهت جهود عدد كبير من مفكريها وأدبائها إلى إلى التشكيك ، فاتخذوا من المسرحيات ومن الرسائل والفصول أداة لنقض كثير من النظم والآراء التى كانت يعيش عليها المجتمع إلى ذلك الحين ، وتأثر الرجال والشباب بذلك ، فتداعت عقائدهم القديمة ، والتبست عليهم معالم الأمور

والصلة بين الشك والسلوك وثيقة ، ومثلها الخالد عمر الخيام الذى حاول أن يغرق شكوكه فى خمر الدنان ، وهكذا فعل الشباب والشيوخ فى فرنسا فقد دفعهم الشك إلى حياة كلها عبث ومجون .

للتشكيك إذاً جانبان : فهو مصدر للخير ، ومصدر للشر ، والمجتمع السعيد هو الذى يقيض الله له عدداً من الشاكين المخلصين الذين يتجه شكهم وتشكيكهم إلى العقائد الفاسدة ، والأوضاع الاجتماعية الضارة ، والذين لا يتخذون من التشكيك صناعة أو لهواً ، فياجهون النافع والضار ، والخير والشر .

وأسعد منه المجتمع الذى يظهر فيه الشكاك و بناة العقائد معاً فتكون طائفة لهدم العقائد السقيمة ، وتحرير المجتمع من سلطانها الغاشم ، وطائفة أخرى لرفع الأنقاض وتشييد الجديد .

وقد كانت فى انجلترا حركة تشكيك جعلت هدفها السخرية بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التى كان الشعب الإنجليزى فى عهد الملكة فكتوريا يؤمن بها بل يقدسها تقديساً . وقد عاشت هذه الحركة إلى الفترة التى امتدت بين الحربين ومن أكبر زعمائها الكاتب الإنجليزى المعروف برنارد شو والفيلسوف العالمى الكبير برتراند رسل .

ولكن كان من حسن حظ انجلترا أن ظهر فيها أيضاً عدد من البناة الذين جعلوا همهم رفع الأنقاض وتشييد الجديد فى الأفق الدينى والسياسى والاجتماعى ومن أشهرهم الكاتب العالمى الكبير ولز : ومن تتبع كتاباته رأى كيف دب الشك إلى عقائده المختلفة فانهارت تباعا ، وكيف نصب جاهداً لبناء عقائد جديدة تحل محل القديمة . والواقع أن تاريخه وما طرأ عليه من تطور يبدو

من ثنايا كتاباته واضحا جليا . وهو يمثل إلى حد كبير ما يجرى فى عقل كل متعلم يعيش فى هذا العصر .

ومن البناة المجددين أستاذنا جون مكرى أستاذ الفلسفة فى جامعة لندن سابقا فالى جهود الجبابرة يرجع الفضل فى بناء كثير من قواعد عقائد الجيل المعاصر فى انجلترا .

* * *

مهمة التشكيك إذاً أن ينشر الشك ولكن ليمهد بذلك للتفكير وللبناة المجددين .

obeikandl.com

الفصل الخامس

موضوعات الفلسفة

مقدمة تاريخية :

حب المعرفة فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وقد ذهب قدامى الفلاسفة وأقرهم عليه علماء النفس المعاصرون إلى وجود غريزة مشتركة بين أفراد النوع ومتوارثه بين أجياله ، تسمى غريزة الاستطلاع ، وقد باشرت هذه الغريزة عملها منذ اللحظة الأول ، فعرف الإنسان بسببها الكثير من طبائع الأشياء ، ولكن الذى نحاول أن نتكلم عنه الساعة ليس التفكير التلقائى الذى تقوم به تلك الغريزة ، حتى فى أحط الشئون وأتفه الأمور ، ولكنه نوع خاص من التفكير تدفع إليه تلك النزعة الفطرية العامة ، وهو التفكير الدءوب الموجه إلى طلب الحقائق الكونية الخالدة المستكنة فى ضمير الوجود ، والذى يهمنا منه الساعة هو أن نعرف إلى أى الموضوعات اتجه فى البداية ، وكيف غير مجرى اتجاهه فعدل من موضوع إلى موضوع .

وأول ما يجب أن نذكر أنفسنا به هو أن الفلسفة قد بدأت حينما ظهر طاليس ومن جاء على أثره من الفلاسفة الذين سجل التاريخ أسماءهم ، وقد كان من أول الموضوعات التى اتجهت إليها أنظارهم وعالجتها عقولهم المعضلة الكونية ، وليس فى هذا ما يثير دهشة ، فإن الانسان فى أيامه الأولى لم يثره شىء بمقدار ما أثاره هذا الكون الفسيح الغاص بأنواع النبات والحيوان والأنهار والجبال والنجوم السيارة ، والذى يحمل طابع الصنعة لصانع غير ظاهر .

كانت المعضلة الأولى إذاً هى المسألة الكونية ، ولكن الفلسفة حتى فى أيامها الأولى لم تقصر بحثها عليها ، فقد اتجهت فى لفتات قصيره إلى الأخلاق وإلى النفس البشرية ولكنها كانت مجرد لفتات لا تستحق اسم البحث الفلسفى ، فبقيت تلك البحوث مهملة أو كالمهملة حتى جاء عصر السوفسطائيين ، وظهر سقراط فتغير مجرى البحث .

ظهر سقراط وقد تكاثرت فى الجو العلمى النظريات المختلفة عن طبيعة الكون ، فهذا يذهب إلى أنه ماء يتشكل ، وذاك يذهب إلى أنه هواء يتكاثف ويتخلل ، وثالث يذهب إلى أنه نار تتحول إلى العناصر الأربعة ، ورابع يذهب إلى أن كل شىء يتكون من العناصر الأربعة مجتمعة بنسب مختلفة ، وخامس يذهب إلى أن الكون ذرات متحركة متشابهة فى حقيقتها مختلفة فى حجومها وأشكالها ، تتلاقى وتتشابك فيحدث الكون وتفترق فيحدث الفساد ، ويوغل آخر فى الاغراب ، فيذهب أن التعدد والحركة التى شغلت عقول الفلاسفة فذهبوا فى تفسيرها كل مذهب ، وهم باطل لا حقيقة له ، وأن الوجود وحده ساكنة لا حركة فيها.

كانت هذه النظريات تتناثر فى الجو يناقض بعضها بعضاً ، وتنكر الواحدة منها ما تثبته الأخرى ، ولا سبيل إلى الفصل فى الموقف ببرهان قاطع ، ورأى حاسم ، وكان من جراء ذلك أن بدأ عصر شك ، وظهرت طائفة من الفلاسفة تدعو إلى الشك وتحاول أن تقيم الدليل على أن الوصول إلى اليقين مستحيل .

فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة الفكرية المضطرنة نشأ سقراط فتملكه الشك فى صحة هذه النظريات المتناقضة بل استولى عليه القنوط من الوصول إلى اعلم صحيح يركن إليه فى تفسير الوجود ، فعدل عن هذا الموضوع ، واتجه بمجهوده

نحو الأخلاق ، إذ رأى الحاجة إلى دراستها ماسة ، وتوقع أن يكون العلم الصحيح فى ميدانها ممكناً ، وكانت هذه بداية اتجاه الفلسفة إلى دراسة الأخلاق بصوره قاطعه ، ومنذ ذلك الحين أصبح علم الأخلاق جزءاً هاما من الدراسات الفلسفية تناوله أفلاطون وأرسطو فا تناولا من دراسات فلسفية مختلفة فقد عرض أفلاطون فى دراسته للأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة والتربية ، وتناول أرسطو كل هذا وسواه من منطق ودراسات نفسية وطبيعية مختلفة ، وهكذا اتسع نطاق الموضوعات الفلسفية فى ذلك الحين ، فشملت الطبيعة وما وراء الطبيعة ، والمنطق والأخلاق والسياسة وغيرها .

ولا نحب أن نتعقب الفلسفة فى جميع أدوارها ، ولذا لا بد أن يكون سيرنا فى تقصى موضوعاتها ضربا من الوثب ليتسنى لنا أن نتخطى العصور اليونانية التى لا خطر لها ، وننتقل مباشره إلى القرون المتوسطة .

ولا مجال هنا للكلام عن سعة موضوع الفلسفة وضيقه ، فالقرون المتوسطة تمثل دوراً خاصاً فى تاريخ العقل البشرى أحص خصائصه ركود ريح الفلسفه كبحث حر طليق ، والواقع أن الفكر البشرى الذى ظل حراً طليقاً فى عهد لوثنيه اليونانيه والرومانيه يتولى قياده الطبقه المثقفة على الأقل قد تخلى فى هذا العهد عن القيادة لعامل جديد ظهر فجأة فدان له الناس فى شرق أوروبا وغربها وسلموا له الزمام طائعين مختارين ، وهذا العامل هو الدين المسيحى الذى انتشر فى ذلك الحين فى طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها .

ولكن الفلسفة حتى فى ذلك الحين لم تفقد اهتمام الناس بها إلا فترة قصيرة فان الكنيسة لم تلبث أن عرفت لها فائدتها . فالفلسفة الوجودية والفلسفة الأخلاقية تستطيع أن تؤدى خدمة دينية كبرى . ويتضح هذا إذا تذكرنا أن

الفلسفة تعمل فى نفس المجال الذى تعمل فيها الديانات وتفصل فى المشاكل التى تفصل فيها فمسألة نظام الوجود العام مثلا من المسائل التى سبقت إليها الديانات حتى البدائى منها وقدمتها للناس فيها حلولا ، وكذلك الحال بالنسبة للقوانين والعادات والأخلاق فهى من الموضوعات التى تعنى بها الديانات كل العناية فتقر بعضا وتنهى عن بعض .

وقد رأت الكنيسة أن مذهب كبار الفلاسفة فى هذه الموضوعات يتفق وأصول الدين فمذهب أفلاطون وأرسطو قريب الشبه بالدين المسيحى و بدا لزعمائها أن من الخير الانتفاع بما لهما من طابع فلسفى لتدعيم العقائد الدينية والأخلاق المسيحية ومن ثم تبنى القديس أغسطين فلسفة أفلاطون واستعان القديس توما بفلسفة أرسطو التى صارت منذ ذلك الحين فلسفة الكنيسة الكاثوليكية ، وهكذا أصبحت الفلسفة فى هذا الحين تؤدى وظيفة دينية هامة .

فاذا انتقلنا إلى عصر النهضة وما يليه . كان أول ما يجب أن نسجله هو ما طرأ على الحياة الفكرية من تغير وما جد فيها من جديد فى أساليب البحث وموضوعاته .

والواقع أنه ما كادت مؤلفات أرسطو وأفلاطون وفلاسفة روما تبعث من مرقدها و يأخذ الناس فى دراستها حتى دب فيهم دبيب الحرية الفكرية الذى كان يشتعل فى صدور فلاسفة اليونان والرومان كأنما كانت تلك الروح هاجعة مخفية فى صفحات تلك الكتب . فما كادت تمس نفوس الأدباء والمفكرين فى هذا العصر حتى تملكهم من حب البحث والحرية الفكرية ما كان يتملك أولئك الفلاسفة القدماء أنفسهم.

كانت القرون الوسطى عصر تدين فكان الناس مؤمنين بدينهم صادق

الإيمان وكان أهم مايشغلهم خلاص أرواحهم ومن ثم كان لابد لهم من أن يخضعوا لتوجيه الكنيسة فكان اللاهوت هو العلم الذى يحل فى المكان الأول من اهتمام الناس جميعاً ، ولم يكن الناس يهتمون كثيراً بدراسة الطبيعة أو تعرف نواميسها ولم يكونوا يقبلون بقلوبهم على الطبيعة فينعموا بما فيها من طعام وشراب وزينة بل كانوا يرون أن واجبهم أن يزهدوا فى الطبيعة وما حوت وأن يتجهوا بمساعيهم لا إلى الإنتاج وكثرة الأموال ، ولكن إلى الأعمال التى تضمن لهم السعادة فى الدار الآخرة ، وبالإجمال فقد كان ما وراء الطبيعة هو موضوع الدراسة ومطمح الأنظار فى تلك القرون ولكن هذا الاتجاه أخذ يتغير منذ عهد النهضة . فقد أدى هذا الحادث الثقافى الهام إلى نتائج بعيدة المدى . فقد شرع الناس يدرسون فلسفة أفلاطون وأرسطو فى أصولها ، وأخذوا يقرءون المسرحيات والشعر اليونانى والرومانى فاذا هم فى دنيا جديدة ودراسات طريفة تدور حول الطبيعة والنفس الإنسانية . وما كادوا يدخلون هذا العالم الجديد حتى داخلهم الإعجاب به والارتياح إليه . وهكذا خرجوا مرة واحدة من الدراسات اللاهوتية إلى دراسة الإنسان ، ودراسة ما فى الطبيعة من أفلاك ونجوم وحيوان ونبات ومنحوها من عنايتهم ما كانت تنفرد به الدراسات اللاهوتية ، ولم يقتصر الأمر على الدراسة بل أخذت نظرتهم إلى الحياة تتغير أيضا فالحياة الآخرة التى كانت مطمح الآمال ومعقد الأبصار بدأ الاهتمام بها يقل أما الحياة الدنيا التى كانت بتأثير الدين موضوع احتقار وازدراء فقد بدأ جمالها يظهر لهم وحبها يتملك قلوبهم وهكذا بدأت الأفكار والقلوب تتحول عما وراء الطبيعه إلى الطبيعة نفسها وهذا وحده انقلاب ثقافى وروحى كبير .

ولكن الآداب اليونانية ذهبت فى تأثيرها إلى أبعد من هذا . فانها وإن

كانت تقدم للناس أفكاراً وآراء جديدة غير معهودة فى ذلك العهد فهى تقدم أيضاً مع تلك المادة شيئاً آخر أهم منها وأقدر على احداث الثورات والانقلابات الفكرية الخطيرة فكتب الآداب اليونانية تحمل طابع تلك العقول الجبارة التى وضعتها . وهى عقول تمتاز بالقدرة الفكرية الممتازة من ناحية وتتسم من الناحية الأخرى بسمة الحرية والاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأى . فقد كان هؤلاء الفلاسفة طليعة رواد الكون والرعيل الأول من مستكشفى الطبيعة وماوراء الطبيعة وكانوا فى فسحة من دنياهم فلم يكن فى المجتمع قوة إجتماعية كبرى مفرطة فى السطوة والسلطان تفرض على الناس آراء خاصة وتنذرهم بضروب العقاب إن حدثتهم أنفسهم بالانتقاض عليها .

ومهما يكن من شىء فان طائفة المثقفين منذ عصر النهضة قد أصبحت عرضة لعدوى الحرية والاستقلال الفكرى التى تنبعث من ثنايا كتب الآداب القديمة التى كانوا يتدارسونها فى ذلك الحين . ولعل أهم مكسب ثقافى جنته أوروبا من هذه الدراسات هو ظهور هذه الروح نفسها فى عدد كبير من طليعة علمائها وفلاسفتها الذين وضعوا أسس العلوم والفنون والفلسفة الحاضرة . وقد ظهرت هذه الروح فى بدايتها بصورة شك لا فى الروحيات وحدها ولكن فى الفلسفة اليونانية القديمة أيضاً فتسربت الشكوك إلى صحتها بدلا من الإعجاب بها والاستنامة إليها كما حدث لبعض الشعوب . وأصبح أرسطو بصورة خاصة هدفا لحملات عنيفة تناولت منطقه وبحوثه الطبيعية وآراءه فى علم الجمال وغيره ثم تلا ذلك أو رافقه عصر تجديد وتمتاز هذه الحركة الفكرية الجديده بميزتين هامتين .

أما الميزه الأولى فهى أن البحوث العلمية تحررت نهائياً من اتجاهها القديم

فبدلا من أن تتجه جهود الباحثين فى ذلك الحين إلى ما وراء الطبيعة وحده كما كان الحال قديماً أخذت همتها إلى الطبيعة نفسها راضية بذلك مطمئنة إليه غير مكترثة بما يصبه الدين ورجاله على الطبيعه من إحتقار واستصغار . فتفرق العلماء طوائف اختصت كل طائفه منها بمنطقه من مناطق الطبيعه كالفلك والميكانيكا والرياضه ونحو ذلك . وهكذا تراجعت الروح الميتافيزيقيه القديمه التى كانت لا تهتم بالكون إلا كوحده جامعه وتحاول فهمه كذلك وظهرت روح منطقيه جديده تستسيغ تقسيم الكون مناطق وتسمح لكل طائفه من طوائف الباحثين بالإكتفاء بمنطقه واحده من تلك المناطق كالأفلاك أو الأشكال الهندسيه أو النبات أو الحيوان . وهذه هى الروح العلميه الجديده التى قامت على أنقاض الروح السابقه وظلت قائمه إلى اليوم .

أما الميزة الثانية : فتتصل بأسلوب البحث ، وهى حادث ثقافى كبير ، بل لعله أكبر حادث فى تاريخ الثقافة الإنسانية كلها ، فقد تغير أسلوب البحث ، وكان طبيعيا أن يتغير بعد أن تغير موضوع الدراسات ، وحلت الطبيعة مكان ما وراء الطبيعة ، وأساس هذا الانقلاب : أن الموضوع الجديد تناله الحواس وتدركه الأبصار ، أو الأسماع ، أو الملاحظة الباطنية . أما الموضوع القديم فلا تستطيع الحواس أو الملاحظة الباطنية أن تصل إليه ، وهذا فرق كبير ، له أثر منطقى بعيد .

كان البحث قديماً يعتمد على أسلوب الاستنباط و يمثله فى صورته الدقيقة ، الأخاذة علم الهندسة النظرية ، وقد أشرنا فيما مضى إلى طبيعته ، ولا نحب أن نعود إلى ذلك بأكثر من كلمات معدودة يدعو إليها الموقف . فأساس هذا

الأسلوب افتراض حل من الحلول لمعضلة من المعضلات التى تواجهنا بها الحياة ثم إثباته باظهار الصلة بينه و بين حقيقة ظاهرة كبديهية من البديهيات ، وقد كان هذا أسلوب البحث فى اليونان ، و بخاصة فى الفلسفة ، وليس فى هذا الحل عادة موضع للمشاهدة أو اعتماد على التجارب الحسية ، و يرجع هذا بطبيعة الحال إلى طبيعة الموضوع التى تعالجه الفلسفة ، فموضوعها بالإجمال : هو ماوراء الطبيعة وهو عالم لا سبيل إلى دراسته بالحس ، فلما اتجه الباحثون فى عهد النهضة إلى الطبيعة تغير الحال ، فموضوع دراستهم محسوس ، و يمكن أن يعتمد على الحس والتجارب فى تصنيف ظواهره واستنباط خصائصه ونواميسها .

والواقع : أن الباحثين قد أدركوا هذه الحقيقة منذ بداية عصر النهضة ، فلم يترددوا فى استخدام الحس فى تحقيق الفروض العلمية أو استقراء الظواهر الطبيعة ليستعينوا بذلك على تصنيفها وتعرف نواميسها ، وهكذا ظهر أسلوب جديد للبحث العلمى استخدم فى دراسة الطبيعة من جميع جوانبها ، فكشف عن الكثير من أسرارها ونواميسها فى عالم الفلك والنبات والحيوان والمعادن ، ولم يكتف العلماء بالعين المجردة ، فعمدوا منذ الأيام الأولى فى تاريخ النهضة إلى اختراع المجهر واستخدامه فى دراسة الفلك ، و بهذا ظهرت دراسات جديدة ذات موضوع جديد وأسلوب جديد ، موضوعها الطبيعة ، وأسلوبها الملاحظة الحسية والباطنية وشغف الناس بها وزادهم بها ولوعاً نجاحها فى الكشف عن نواميس طبيعة صادقة أمكن استخدامها فى الحياة العملية من إنتاج ومواصلات و إضاءة ، وغير ذلك .

وهذه الدراسات الجديدة هى التى ندعوها باسم العلم .

وقد قدر لهذا المولود أن ينمو و يترعرع و يسيطر على حياتنا العصرية وقد رافق ظهوره ظهور نوع جديد من الحياة فان الناس لم يكتفوا بالإقبال على الطبيعة كموضوع للدراسة ، بل تغيرت نظرتهم إليها ، فحلت محل نظرة الزهد فيها والعزوف عنها نظرة أخرى جديدة ، فبدأ الناس يشعرون بجمال الطبيعة و يستسيغون لذاتها من طعام وشراب وزينة وقصور ، ثم لم يلبثوا أن قبلوا الحياة الطبيعية ، ورغبوا فيها ، وتنافسوا فى المزيد منها ، وقد ألقى هـذا كله ظلا ثقيلا على عالم ما وراء الطبيعة كموضوع للدراسة الفكرية ، وهدف الأطماع الإنسانية .

ولكن الفلسفة لم تلبث أن عادت إلى الظهور ، وليس فى هـذا ما يدعو إلى الدهشـة ، فمعرفة حقيقـة هذا الوجود ، حاجة من الحـاجات الخالدة للنفس الإنسانية .

وقد كان الناس يعتمـدون على العقائد الدينيـة فى معرفة الكون . أما الآن وقد انتقلنا إلى عصر التفكير الحر ، فليس فى مقـدور العقائد الدينيـة وحدها أن ترضى تلك العقول المدربة على النظر العقلى والبحث الفكرى المستقل . ومن ثم كان طبيعيا : أن يتقدم العقل الآن كما تقـدم فى عهد طاليس لمواجهة المعضلة الكونية وحلها بالبحث والنظر كما فعل فى عهد طاليس ، والتاريخ كما يقولون يجدد نفسه ، وقد كانت الظروف فى ذلك الحين مهيأة لهذا الحادث ، فقد درست فلسفة أفلاطون وأرسطو من جديد دراسة قوية ، فأعدت العقول للنظر الفلسفى الصحيح ، فلا يروعنا إذاً أن تظهر الفلسفة الحديثة كما ظهر العلم الحديث ، وكما بدأ العلم الحديث بثورة ضد علم الطبيعة الأرسطى والعلوم الطبيعية اليونانية بوجه عام وضد أسلوب البحث فيها ، كذلك بدأت الفلسفة

لحديثة بثورة عنيفة ضد الفلسفة القديمة ، وبخاصة فلسفة أرسطو ، وببحث دقيق عن أسلوب جديد للدراسات الفلسفية .

ولعل ديكارت أبرز الشخصيات الثائرة كما أنه فى الواقع واضع أسس الفلسفة لحديثة وأسلوب البحث الفلسفى الجديد .

وقد تناولت الفلسفة الحديثة فى بدايتها نظرية الوجود ، ولكن شعب البحث لم تلبث أن تعددت ، فتناول الفلاسفة دراسه النفس البشريه ، ودراسة الأخلاق ، ودراسه نظام الدولة ، ودراسة طرق المعرفه وأساليبها ، فظهرت بذلك نظريات الوجود والمعرفه وأصول المنطق وتواميس الحياة النفسيه فى صورتها الفلسفيه ونظريات التربيه .

obeikandl.com

تحديد موضوعات الفلسفة

١ — الوجود بين العلم والفلسفة :

الكون هو الموضوع الذى شغل ولا يزال يشغل العقل البشرى منذ ظهور الإنسان فوق هذه البسيطة إلى يوم تطوى الأرض ومن عليها . فهو الذى أثار ثائرة العقول فى كل العصور وهو الذى تدور حوله منذ بداية العلم والفلسفة أفكار المفكرين تحاول أن تتعرف حقيقته وتسبر غوره وتصل إلى المكنون من أسراره ونواميسه ، ولكن الكون واسع فسيح مترام فى الزمان والمكان إلى غير حد واضح أو نهاية معروفة ، وهو من ناحية أخرى متعددة الصفات والخواص ومن ثم كان ميدان البحث فيه متسعا لصنوف الباحثين . فهناك المادة فى صورها المختلفة تعرض أمامنا مجالا فسيحا متنوعا يمكن أن تستهوى كل ناحية من نواحيه طائفة خاصة من طوائف الباحثين . هناك المادة الجامدة والمادة الحية فى صورتيها العامتين من نبات وحيوان ، ومن الممكن أن يستميل كل قسم من هذه الأقسام عدداً من المشغوفين بالعلم والمعرفة . والواقع أن هذا قد حدث فعلا فقد توفرت طائفة على دراسة المادة غير الحية فنشأ من ذلك علم الكيمياء وعلم الطبيعة كما توفرت طوائف أخرى على دراسة النبات والحيوان فنشأ علم النبات والعلوم التى تدور حول الحيوان كعلم التشريح وعلم الحيوان نفسه .

وهناك جزء خاص من المادة يستوقف النظر ، وهو ذلك النظام الشمسى أو النظم الفلكية المنبثة فى هذا الفضاء المترامى الأطراف تستبى العقول بجلالها وسموها ، وقد اجتذبت منذ عصور متوغلة فى القدم عددا غير قليل من جمهرة الباحثين فوقفوا على دراستها جهودهم .

وهناك العقل البشرى وظواهره المختلفة تقدم ميدانا فسيحا حافلا بضروب الأعمال التى تحتاج إلى الدرس الطويل . وقد انصرف إليها كما انصرف إلى غيرها نظر الباحثين ينقبون عن أسرارها و يتحسسون الخفى من تواميسها .

ولم تقف نزعة البحث عند دراسة هذه الحقائق المـاثلة للحس الظاهر أو الملاحظة الداخلية بل جاوزتها إلى بعض الصفات الـكونية المجردة واتخذت منها موضوعا جديداً للدراسة :

فعالم المـادة مثلا يبدو ممتداً فى اتجاهات ثلاثة والامتداد حقيقة واقعة تتصل بالأجسام المختلفة فهى كلها من نبات وحيوان وجماد تمتد فى الأبعاد الثلاثة فضلا عن خصائصها الأخرى التى يدرسها علم النبـات والتشريح والطبيعة والـكيمياء فهل يمكن أن نجرد الامتداد من تلك الأجسام المختلفة ونستخلصه منها كحقيقة مفردة قائمة بذاتها ثم نتخذ منه موضوعا لدراسة خاصة فإن الامتداد يأخذ أشكالا مختلفة منها أشكال منتظمة كالمثلث والمربع والمكعب مثلا وأشـكالا أخرى كثيرة غير منتظمه . أفليس من الممكن أن نتصدى لهـذه الأشـكال المنتظمة فنعرف طبيعتها وخصائصها العامة بطريقة علميه . والواقع أن هذا هو أحد الاتجاهات التى اتخذتها الدراسات العلميه فعلا فقد انقطعت طائفه من العلمـاء لدراسة الامتداد وأشكاله المنتظمة ، فـكان من ذلك علم الهندسة .

وهكذا لم يقتصر البحث فى الـكون على دراسة الأشياء التى تقع تحت الحس بل تناول أيضاً دراسة صفاتها العامة ، فجردت مما يلابسها وتلابسه من الأشياء وصارت موضوع بحوث علمية دقيقة .

هذه إذاً دراسات تختلف موضوعاتها ، لـكنها تتفق إلى حد بعيد فى طبيعتها فـكلها عمليات تفكير تسير فى صورتها العامة على سنن واحدة لا يكاد يختلف.

وهى جميعاً ترمى إلى أهداف واحدة ، فكلها يتجه إلى الظواهر الكونية ، فى موضوع خاص فيصنفها و يدرس طبيعة كل نوع منها متحريا الكشف عن صورته العامة وخصائصه وعلله وأسبابه ، فعلماء النبات مثلا يردون هذه النباتات المختلفة إلى عدد معين من الفصائل ، و يدرسون كل نوع على حدة ، ليعرفوا صورته العامة ثم يقتبعون خصائصه وآثاره وأسلوبه فى حياته ، فيجتمع لهم من ذلك عدد من المقاييس العلمية الهامة ، وكذلك يحددون الظروف التى تنمو فيها تلك الفصيلة ، كالمناطق الجغرافية ودرجة الحرارة الموسمية ونحو ذلك ، وبذلك يكشفون الستار عن عوامل حياته وأسباب نموه ، ولا ينسون غالباً دراسة المادة التى تتكون منها النبات بوجه عام ، و إذا استعرنا لغة أرسطو الواضحة الدقيقة لتحديد هذه الأهداف ، استطعنا أن نقول أنهم فى منطقة النبات من عالم الطبيعة يبحثون عن الأسباب الأساسية المعروفة ، يبحثون عن السبب المادى ، وهو المادة الحية التى يتكون منها النبات ، وعن السبب الصورى ، وهو الصورة الخاصة لكل فصيلة من فصائل النبات ، وكذلك يبحثون عن العلل الفاعلة فى حياته ونموه كعوامل التربة والجو مثلا .

وكذلك الحال فى علم كعلم الكيمياء ، فهو يبحث عن الأسباب الأساسية للمركبات الكيماوية فيبحث عن سببها المادى فى العناصر الكيميائية المعروفة ، وعن السبب الصورى لكل نوع منها ، فيحلل الماء إلى عنصريه المعروفين ، والنسبة الضرورية بينهما ، وهلم جراً .

وهذه العلوم المختلفة تزاول عملها فى دوائر محدودة من ناحيتين : من ناحية الامتداد ، ومن ناحية العمق ، فكل علم من هذه العلوم يقتصر من الوجود على

ناحية خاصة لا يجاوزها إلى سواها ، وليس بينها علم واحد حاول أو يحاول أن يدرس الوجود كله ، والأمر كذلك من ناحية العمق ، فكل علم منها يتجه إلى الكشف عن الأسباب القريبة للظواهر الطبيعية التي يدرسها ، ويقف في بحثه عند هذا الحد ، ولا يتوغل فيما وراءه .

فعلماء النبات مثلا يقتصرون في دراستهم من هذا الكون الفسيح على النبات وحده ، ويتركون المعادن والحيوان والعقل البشري والأفلاك السماوية ، وغير ذلك من موضوعات الدراسة العلمية ، وهذا التخصص يفيدهم فهو يعينهم على التوسع في دراسة موضوعهم الخاص ، وتتبع الغامض من نواميسه ، والخفي المحتجب عن أسراره ، ولكنهم يدفعون ثمن ذلك غالياً ، فتراهم لا يكادون يعرفون شيئاً من الدراسات الأخرى كعلم الطبيعة والكيمياء والمعادن والطب والفلك ونحو ذلك . التخصص إذا استيعاب ، ولكن مع ضيق في الأفق ، والعلماء بوجه عام يتخصصون ، فيتوسعون في موضوعهم الخاص ، ولكنهم يحتبسون فيه ، فلا يكادون يرون سواه .

وأهم من ذلك كله أنهم في احتباسهم داخل دائرتهم الضيقة لا يشهدون إلا ناحية خاصة من الكون ، ولا يرون الكون كله ، ومن ثم تخفى عليهم طبيعته وتفوتهم أسراره ونظمه العامة ، فالعالم قد يعرف فصائل الحيوان وخصائصها مثلا إذا تخصص في علم الحيوان ، ولكنه إذا اقتصر على هذا الموضوع فانه لن يعرف طبيعة الوجود ونظمه العامة ، ويصبح ولا فلسفة له عن الكون الذي يحيا ويموت فيه ويتأثر بنظمه ونواميسه الخالدة .

والعالم أيضاً لا يتعمق في بحثه إلا الى حد ، ولا يذهب إلى العمق الذي يذهب إليه الفيلسوف ، فمثلا علماء النبات في دراستهم لموضوعهم الخاص يدرسون

صور النباتات المختلفة ليتعرفوا طبيعة فصيلة القطن ، وفصيلة الأرز ، ولكن هناك صورة عامة تشمل كل هذه الفصائل ، وهى الحياة ، ففصيلة القطن أو الأرز صورة خاصة من صورة الحياة التى تتنوع فتأخذ صوراً شتى كصورة الأرز والقطن ونحوها والمتبع ألا يجاوز العالم فى دراسته تلك الصور الخاصة التى يستطيع أن يدرسها بأسلوبه الخاص أسلوب الملاحظة والتجربة ، وألا يتعرض لبحث طبيعة الحياة وكيف تنوعت صورها فى النبات ، ثم ترقت إلى حياة الحيوان والإنسان .

وهو يدرس القوى الطبيعة التى تؤثر فى حياة الفصائل النباتية المختلفة من حرارة ورطوبة مثلا ، ولكنه لا يمضى فى بحثه إلى أبعد من ذلك ، فلا يحاول أن يرجع بهذه القوى الطبيعية إلى قوة كونية عامة كالإله الذى يحرك هذا الوجود كله ليسير كل كائن فيه إلى كماله النوعى .

وإذا اتجهت جهودهم إلى دراسة مادة النبات ، لم يجاوزوا مادته الخاصة ، وهى المادة الحية التى تتكون منها النباتات على اختلاف أنواعها ، ولم يذهبوا إلى أبعد من هذا ، فلا يدرسون طبيعة المادة العامة التى يتكون منها النبات والحيوان والجماد ، ولا يعدون مثل هذه الدراسة داخلة فى نطاق عملهم .

وموجز القول أن علماء النبات فى دراستهم لموضوعهم يدرسون السبب المادى والسبب الفاعل والسبب الصورى ، ولكنهم يطلبون الأسباب القريبة دون البعيدة ، فبدلا من دراسة طبيعة المادة العامة المشتركة بين المعادن والغازات والنبات والحيوان — المادة فى ذاتها — يدرسون نوعا خاصاً منها ، وهو مادة النبات فقط ، وبدلا من أن يدرسوا الطاقة العامة ، أو السبب الأعلى المحرك لكل ما فى الكون ، يدرسون الأسباب القريبة المؤثرة فى حياة النبات كالحرارة والرطوبة بدرجاتها المختلفة .

ويجب أن يكون معروفا أن هناك أسبابا قريبة وأخرى بعيدة ، فالأسباب القريبة بالنسبة للنبات ، هى المادة الحية ، والصور المألوفة الكثيرة التى تلبسها هذه المادة والعوامل الطبيعية المعروفة التى تؤثر فى حياتها ، ولكن هناك أسباب عالية بعيدة وراء هذه الأسباب الخاصة القريبة ، فهناك المادة بوجه عام ، وصورة الحياة بوجه عام ، ومصدر الحركة الأعلى فى هذا الوجود ، وهذه هى الأسباب البعيدة لا يدرسها العلم ولا يتعرض لها لأنه يقتصر فى دراسته على الأسباب القريبة وحدها ، ومن ثم كان من الضرورى أن توجد دراسة خاصة لها .

والأسباب القريبة قد تفسر لنا المناطق الكونية المختلفة ، فكل مجموعة من هذه الأسباب تفسر منطقة خاصة من مناطق الكون ولكنها لا تستطيع أن تفسر منطقة أخرى أو تفسر الكون كله .

بل الحق أن الأسباب القريبة لا يمكن أن تفسر شيئاً ما تفسيراً كاملا فلن يبرح الخفاء ويزول الغموض وتنكشف الحقيقة ما دامت الأسباب العليا مجهولة غير معروفة ، وإنما تتم المعرفة إذا جاوزنا الأسباب القريبة ، وذهبنا فى البحث إلى ما وراءها من أسباب بعيدة ، والعلم لا يستطيع ذلك ، فمن المحتوم عليه أن يقف عند حد محدود ، وألا يجاوز السطح الظاهر المكشوف من هذا الوجود .

لا تذهب العلوم إذاً إلى الأعماق بل تقف عند السطح أو الظواهر ، ومن ثم يعجز كل علم عن أن يقدم لنا بياناً كافياً حتى عن موضوع دراسته فلا سبيل له إلى ذلك ما دامت الأعماق محجوبة عنه وطرقها موصدة فى وجهه .

وإذا كان كل علم على حدة عاجزاً عن تفسير موضوعه تفسيراً كاملا فهو عن تفسير الكون كله أعجز بل أن العلوم كلها مجتمعة لا تستطيع ذلك ، فقد تستطيع

مجموعة العلوم أن تفسر مناطق الكون تفسيراً محدوداً مفككا ، فمن درس العلوم جميعها استطاع أن يفهم الكون ، ولكن كمناطق متفرقة لا كوحدة متماسكة الأجزاء ومعنى ذلك واضح معناه ان العلوم جميعاً لا ترفع الغموض عن الكون ولا ترضى النفس البشرية المتطلعة إلى معرفته كوحدة متكاملة تنبث فيها جميعاً مادة واحدة وتحركها قوة واحدة تسير بها نحو صور عامة ولا بد للمعرفة الكاملة من الذهاب إلى الأعماق والوصول إلى الأسباب العليا .

لا بد لنا إذاً بعد العلم من دراسة أخرى إذ لاغنى لنا بعد أن تؤدى العلوم مهمتها الطبيعية كل فى دائرته الخاصة من أن نتساءل ماهى المادة العامة المشتركة بين كل هذع الظواهر ، وما هى الطاقة العامة السارية فيها ، ومن أين جاءت وما هى تلك الصور العامة المشتركة بين أنواع الكائنات الحية والتى تسميها باسم الحياة وكيف تنوعت أنواعها وترقت من بسيط إلى مركب ، وهل هى فى ذلك تسير نحو هدف وهل وراء هذه الحركة الكونية مصدر يبثها فى الكون فيخلق هذه الصورة التى تتطور وترقى من حال إلى حال أعلى ، ثم ماذا وراء ظواهر الحس والتفكير والسزعة والتردد والغضب والرضا . هل وراءها كائن ذو وجود ذاتى مستقل . هو الذى يغضب ويرضى ويحس ويفكر ، وما هى طبيعته ومامصيره ، وهل للعقل حقيقة صلة بجسمه وماهو نوع تلك العلاقة . وكل هذه أسئلة لا جواب للعلم عنها لأنها تتعلق بحقائق لا يستطيع العلم دراستها لبعدها عن متناول الحواس وإنما يدرسها العقل مستقلا عن الحس ومستغنياً عن معونته ، والواقع أن هذه الحقائق موضوع قائم بنفسه مغاير للعلم الحسى فى ذاته وصفاته ، موضوع دراسة خاصة تعتمد على التفكير البحت الذى لايستخدم ملاحظة ظاهرة أو باطنة وهذه الدراسة تسد النقص الذى لم يستطع العلم أن يسده وتمكن العقل من معرفة حقائق الكون

العليا وأسبابه البعيدة المحجوبة عن العلم والعلماء .

إلى جانب الطبيعة إذا يوجد موضوع مختلف عنها يحتاج إلى دراسة خاصة بأسلوب غير الاسلوب الذى تستخدمه العلوم الطبيعية فى دراسة الطبيعة ، وهذا الموضوع هو الحقائق الكونية العليا فى صلاتها العامة . وقد تجرد لهذه الدراسة عدد غير قليل من العقول البشرية الكبيرة ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن أول ما شغل به المفكرون هو هذا الموضوع نفسه ، فطاليس قائد النهضة الفكرية العالمية لم يتصد لدراسة النبات والحيوان ونحو ذلك بل كانت مهمته الأولى أن يدرس الكون فى جملته فيصل إلى حقائقه وأسبابه العليا ، وكذلك فعل من جاء بعده من تلاميذه وتلاميذهم فقد حاول الجميع رد الكون إلى أسبابه العليا المادية والفاعلة والصورية فهو مرة ماء يأخذ صورة الأرض والهواء والنار تحت تأثير عامل الحياة المستكنة فى مادته الأولى ، وثانيه : هواء يتحول بالتكاثف إلى ماء فارض ، بالتخلخل إلى نار وهلم جرا . ثم يجىء أفلاطون فاذا العالم ليس مادة فقط تأخذ صوراً متعددة ولكنه مادة وصور وعقول و إله يطبع الصور فى المادة و يصل العقول بالأجسام .

ثم تمر قرون و يجىء ديكارت فى مطلع فجر الفلسفة الحديثة فاذا الكون عنصران أساسيان هما العقل المفكر والمادة الممتدة و يجتمعان فى الإنسان فيتفاعلان ، ولكنهما يستمدان وجودهما فى كل لحظة بل فى كل ثانية من إله علىّ .

وهكذا اتجه الفلاسفة منذ أقدم العصور إلى دراسة أسباب الكون العليا يحاولون تحديدها و بيان الصلات القائمة بينها وقد دعيت هذه الدراسة منذ عهد أرسطو بما وراء الطبيعة .

٢ — الأخلاق والجمال

وليست فلسفة ما وراء الطبيعة أو نظرية الوجود هي كل ما هنالك فالفلسفة أوسع مجالا من ذلك فهي كما سبق تنظر إلى الكون كوحدة ولكنها تنظر إليه من نواح متعددة فترى فيه صفات متعددة وإذ ذاك تعكف على دراستها . فتحدد معانيها ونصيب عناصر الموجودات من كل منها . فالكون يتصف بالوجود ولكن ما معنى الوجود وما هو الموجود منه حقا . هل الموجود هو الطبيعة وما وراء الطبيعة وهل الموجود فى دائرة الطبيعة هو المادة والعقل معا كما يلوح لنا . أم لا وجود لما وراء الطبيعة والموجود هو الطبيعة وحدها وهل تحتوى الطبيعة على المادة والحياة والعقل أم هى مجرد مادة . وبالإجمال فالفلسفة لا تكتفى بالنظرة الأولى أو الشعور الأول حيث يبدو كل شيء مكتسبا بصفة الوجود ومتحليا بحليته بل ترى لزاما عليها أن تكشف عن الحقيقة فتميز الموجود حقا مما لا وجود له إلا فى عالم الأوهام

ولكن الكون كما يبدو لنا تحت صفة الوجود يبدو أيضا تحت صفات أخرى فمن الأشياء ما يبدو حسنا ومنها ما يبدو قبيحا وحسبك أن تنظر إلى مثل السلوك العليا وقواعد النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لترى ذلك واضحا وضوح الشمس فى رائعة النهار فنحن فى دائرة السلوك نرى الأعمال والصفات وقد انقسمت قسمين وبدت لنا تحت صفتين مختلفتين فالصدق والعفة والاعتدال صفات حسنة ، ظاهرة الحسن والكذب ، والشر ، والإفراط صفات قبيحة بينة القبح . والأمر كذلك فى جو الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحكم الشعب والنظام الاشتراكى والزواج الموحد للطرفين نظم حسنة وضاءة الحسن أما الحكم الفردى المطلق ونظام الأثرة الاقتصادية والزواج المتعدد الأطراف فقبيح قبحا لا يحتاج إلى تدليل .

هناك إذاً حسن وقبيح يسمان الصفات والأعمال والمؤسسات وهذه الصفات تلعب دوراً كبيراً فى حياتنا الفردية والاجتماعية فنحن نشعر بأن من واجبنا أن نعمل الأعمال المتصفة بالحسن ونحقق المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتسمة بهذا السمة . وحسبك أن تنظر إلى الجهود الإنسانية الجبارة التى بذلتها البشرية بسخاء فى تأسيس المؤسسات السياسية التى أخذ حسنها بمجامع الألباب كالنظام الديموقراطى مثلا فقد بذلت الأمم جهوداً مضنية لتحقيق هذا النظام السياسى الفاتن وكذلك الحال بالنسبة للسلوك فنحن نحاول جاهدين أن نحقق المثل الاخلاقية التى أجمع الناس على حسنها فى سلوكنا اليومى . فنحاول أن نستمسك بالصدق ونلتزم جانب الاعتدال ولا نكتفى بذلك بل نهتم اهتماما كبيراً بتدريب أبنائنا عليها منذ نعومة أظفارهم ولا سبب لذلك إلا أنها تبدو مكللة بأكليل الحسن

نحن إذاً نلمح فى الوجود حسنا ونشعر بأن العمل الحسن واجب لأنه حسن . فالصدق حسن وواجب والاعتدال فى الحياة الجسمية حسن وواجب وهلم جرا . ونحن نتنزل على حكم هذه القواعد فنحاول أن نقوم بالواجب ونحقق الحسن ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . ويبدو هذا بوضوح حينما تظهر فى الموقف عوامل قوية تدفعنا إلى إهمال الواجب . فقد يحملنا حب المصلحة المادية فى بعض المواطن على محاولة التخلص من واجب الصدق وتقرير الحقيقة . ففى مثل هذا الموقف يظهر الشعور بالواجب شعورا واضحا فنناضل فى سبيل أداء واجبنا حتى ننتصر أو نخفق .

تصطبغ الأشياء والأعمال إذا بصبغتين ، صبغة الحسن وصبغة الوجوب ، وتلعب هاتان الصفتان فى حياتنا العملية ونظامنا الاجتماعى والاقتصادى والسياسى دوراً كبيراً . وهذه الظواهر الهامة تخلق موضوعا جديداً للفلسفة . فإنه لا بد من البحث الدقيق عن الحقيقة فى هذا المجال أيضا . ويتضمن هذا البحث أمورا

أساسية قليلة العدد فلا بد أولا من تحديد معنى الحسن تحديدا واضحا يميزه عن كل ما عداه مما قد يلتبس به أحيانا . وتظهر ضرورة هذا البحث إذا تذكرنا أن الحسن الذى نصف به المؤسسات والصفات والأعمال ليس من الصفات الحسية أو الواضحة . ولا بد أيضا من تحديد معنى الوجوب لتتم لنا بذلك معرفة هاتين الصفتين الهامتين ولا مفر لنا أيضا من أن ندرس مفضلة أخرى مرتبطة بالبحث السابق كل الارتباط وهى مسألة موضوعية الحسن والوجوب فقد نستطيع أن نحدد معنى الحسن مثلا . ولكن يبقى بعد ذلك احتمال خطير قد يذهب بكل فائدة للبحث السابق : فمن المحتمل ألا يكون لهذه الصفة وجود فى الأشياء والأعمال التى نصفها بها . من الممكن ألا يكون فى الصدق صفة تسمى الحسن ولا فى الاعتدال معنى يسمى الحسن . وأن تكون هذه الصفة وهما من الأوهام التى ليس لها حقيقة خارجية تطابقها أما البحث الثالث فبحث خطير من الناحية العملية الفردية والاجتماعية . وذلك أنه إذا تم لنا تحديد معنى الحسن و إثبات موضوعيته فقد بقى أن نحدد ضروب السلوك التى تتصف بالحسن والمؤسسات التى تتصف بالحسن وهلم جرا وهذا البحث هو الذى يقدم لنا المبادىء الحسنة التى يجب أن نلتزمها فى سلوكنا الفردى والاجتماعى . وينتهى عادة إلى تقرير مبادىء عامة كحسن الصدق والاعتدال والنظام الديموقراطى والاشتراكى وهلم جرا .

وعلم الأخلاق فى هذا البحث الأخير يقوم بمهمة مشابهة للمهمة التى تقوم بها العلوم الطبيعية . فالدراسات العلمية على اختلاف أنواعها تتحرى الكشف عن نواميس عامة غير أن العلوم الطبيعية تحاول العثور على النواميس الطبيعية التى يخضع لها الوجود فعلا . فتصل إلى قانون تمدد الأجسام بالحرارة أو قانون الجاذبية ونحو ذلك . وكلها قوانين يخضع لها فعلا عالم المادة ولا يستطيع

بحال أن يتمرد عليها أو يشق عصا طاعتها ، أما الأخلاق فتحاول أن تصل إلى قوانين للسلوك والنظام العام . تحاول فى الواقع أن تعثر على أنواع السلوك وصور المؤسسات المتصفة بالحسن والواجبة التنفيذ . وهى نواميس عامة كالنواميس الطبيعية فالقانون الذى يقرر أن الصدق حسن ناموس كونى صادق كالقانون الطبيعى الذى يقرر أن الأجسام تتمدد بالحرارة . غير أن قوانين الأخلاق لا تحكم السلوك الإنسانى فعلا كما تحكم القوانين الطبيعية سلوك المادة فالأجسام تحت الحرارة لا بد أن تتمدد ، أما الإنسان فيستطيع أن يصدق وأن يكذب . ومهمة علم الأخلاق أن تمده بالمبادئ التى تتصف بالحسن ليستطيع إن شاء أن يجعلها تحكم سلوكه كما تحكم القوانين الطبيعية سلوك المادة . وهذه الدراسة لا يمكن للعلم أن يقوم بها . ويتضح سبب ذلك إذا تذكرنا بعض ما أشرنا إليه فيما سلف أكثر من مرة فأساس الأسلوب العلمى هو الملاحظة الحسية بوجه خاص ومن ثم كان فى مقدور العلم أن يدرس الموضوعات التى يقع عليها الحس دون ما يعلو متناول الحواس ويخرج عن نطاقها . ودراسة الأخلاق كما يتضح مما سبق تدور حول كلمتى الحسن والوجوب بوجه خاص فهى تحاول أن تبين معناها ، وأن تحدد أنواع السلوك والنظم التى تتصف بهما . والحسن والوجوب صفتان غير حسيتين . فمن ذا الذى يدرك بحاسة من الحواس حسن الصدق أو حسن الديموقراطية . وليس معنى ذلك أننا لا ندرك حسن الصدق والديموقراطية ، فهذه حقيقة ليس من السهل انكارها ولكن معناها أن الحسن لا يدرك بالحس وإذا فلا يمكن أن يستخدم الأسلوب العلمى فى الدراسة الأخلاقية للسلوك والمؤسسات . لا يمكن أن نستعرض نماذج من أنواع السلوك وننظر إليها لنرى بالعين حسنها أو قبحها ، ثم نقرر على أساس هذه الرؤية أن هذا النوع من السلوك حسن وذاك قبيح .

ولكننا على رغم ذلك ندرك الحسن والقبح ونشعر بحسن الحسن وقبح القبيح غير أن هذا يتم بالعقل لا بالحس ، الحسن والوجوب إذا صفتا يدركهما العقل وهو لهذا السبب يستطيع أن يقوم بهذه الدراسة . يستطيع أن يحدد معنى الحسن والوجوب و يستطيع أن يفصل فى أمر موضوعيتهما ، و يستطيع أيضاً أن يقرر القواعد الأخلاقية العامة . ومعنى هذا أنه إذا كان الاستقراء لا يصلح لدراسة هذا الموضوع فان الأسلوب الاستنباطى صالح له .

الأخلاق إذا قسم من الدراسات العقلية الصرفة ، قسم هام من الفلسفة .

وتلجأ الفلسفة فى دراستها إلى الطريقة الاستنباطية فهى تحاول الوصول إلى قواعد عامة بديهية تقرر حسن مبادىء السلوك كالصدق والاعتدال مثلا أو تحاول أن تصل إلى قاعدة عامة واحدة تقرر الحسن الذاتى لمبدأ عام واحد ثم تستنبط منه جميع المبادىء الأخلاقية الأخرى . فقد حاول بعض الفلاسفة أن يقرر أن الحسن الوحيد هو اللذة وأن يستنبط من ذلك حسن المبادىء الأخلاقية العامة المعروفة على أساس أنها جميعا تؤدى إلى اللذة :

ونعود الآن إلى نظرة عامة تجمع شتات هذا البحث . فالفلسفة تدرس الكون تحت صفات متعددة فتدرسه تحت صفة الوجود وفى هذا البحث تحدد ما هو موجود حقا وما ليس كذلك ، وتدرسه تحت صفة الحسن الأخلاقى وفى هذا البحث تحدد الحسن والواجب ، وما ليس حسنا ولا واجب .

ولكنها لا تقف عند هذا الحد فهى تدرسه تحت صفة أخرى هامة ، وهى الجمال ، والجمال كالحسن الأخلاقى صفة غير حسية ، ومن ثم كان لا بد من الاستعانة بالعقل فى دراستها ، والاعتماد عليه فى تحليلها وتحديد معناها ، و بيان الأشياء التى تتصف حقا بالجمال ، وتميزها مما لا يتصف به .

علم الجمال إذا قسم من الفلسفة ، بل هو قسم هام منها ، وموجز القول أن من أهم أقسام الفلسفة نظرية الوجود وعلم الأخلاق وعلم الجمال .

هذه هي الفلسفة ، وهذا هو ميدانها ، أما الفيلسوف فرجل ذو نزعة فريدة تستهويه من الكون النواحي السابقة الذكر أكثر مما يستهويه سواها . فهو يترك الطبيعة للعلماء يقتسمونها فيما بينهم ، ويتوفرون على دراستها ، فريق للحيوان وآخر للنبات ، وثالث للفلك ، وهلم جراً ، كل منحاز إلى ناحيته الخاصة عاكف على دراستها مكب على ملاحظة ظواهرها بالعين المجردة ، أو بالمجهر ليستطيع على أساس من هذه الملاحظة أن يصنفها ويستخلص نواميسها ، وإنما يترك الفيلسوف الطبيعة مع وضوحها وانكشافها للحس وسهولة درسها لأنه يشعر بأنها القشرة السطحية للكون ، وبأن وراء هذا السطح تكمن حقائق الكون ، حقائقه الخالدة فيحن إلى معرفتها ويندفع إلى البحث عنها والتنقيب عن المستكن من أسرارها .

الفيلسوف إذا يترك ظاهر هذا الوجود ويتجه إلى أعماقه الخفية باحثاً عنها منقباً عن غوامضها وتستوقفه محاسن هذا الكون ، يستوقفه حسن الأفعال ، والنظم الإنسانية وجمال الطبيعة والفن ، فهو يتخير من الكون حقائقه الخالدة وصفاته النبيلة التي لا تقع عليها ولا يدركها حس ولا نشعر بها إلا حينما تخفق لها القلوب خفقة الاحترام أو الاعجاب أو الابتهاج ، يتخيرها وينعطف إليها ويتفرد لها فيدرسها دراسة صبر وأناة .

الفصل السادس

ما هى الفلسفة

الآن وقد انتهينا من ذلك العرض التاريخى الوجيز لنماذج قليلة من تلك العملية التى عرفت باسم الفلسفة ، ومن تحليلها إلى عناصرها الأساسية ، يحق لنا أن نسأل فى ضوء ذلك كله عن المعنى الدقيق لكلمة الفلسفة ، وأن نحاول رسم صورتها العامة ونحن مطمئنون إلى أن محاولتنا ستسير فى طريق معبد إلى هدف واضح ، فما هى الفلسفة ؟ وما هى الفكرة الأساسية التى تشير إليها تلك الكلمة الساحرة ؟

* * *

أحس الإنسان منذ الساعة الأولى بأن الكون الذى يعيش فيه غامض رهيب ، وشعر بوحدته فيه ، وضعفه إزاءه ، وأنه لا أمن له ولا طمأنينة إلا إذا عرف حقيقته ، واهتدى إلى تلك القوة أو القوى الهائلة التى تتحكم فيه فتحرك السحاب والعواصف ، وتسقط الأمطار ، وتثير البحار ، وحدد صلتها به ، وكان خياله فى البداية أقوى استعداداته العقلية فان فكره وذكائه لم يكن قد تم نضجه بعد ، فأخذ يتخيل عوامل كونية وراء الظواهر الطبيعية الكبرى ويسبغ عليه من نسج خياله صفات مختلفة ، وجعل منها آلهة يخشى غضبها ويسعى إلى رضاها ولما نضج عقله لم يلبث أن رأى سذاجة هذا النوع من التفكير ، وقد كان لا يزال يحس بالرغبة الإنسانية القديمة فى معرفة الوجود ، فواجه المعضلة مرة أخرى ،

ولكن بعقله وذكائه لا بخياله الطفلى القديم فأخذ يفترض فى أصل الكون ونشوئه فروضا مختلفة ويستدل على صحة فروضه وتبريرها بحجج ودلائل متباينة وبهذا التطور فى أساليب تفسير الكون وتأويله ظهرت الفلسفة بمعناها الصحيح .

الفلسفة إذاً رغبة فى المعرفة وهى كـكل رغبة فى المعرفة الذاتية تستعين على إدراك غايتها بعملية التفكير ولكنها رغبة فى معرفة خاصة فهى رغبة فى معرفة الكون كله ولـكن كوحدة مترابطة لا كمناطق متعددة متفرقة فالفيلسوف لا يريد أن يعرف عالم النبات أو عالم الأفلاك أو عالم المعادن كلا على حدة ولا يرضيه أن يعرف هذه العوالم جميعا ولـكنه يريد أن يعرف نظام الـكون العام الذى يبدأ من مبدأ أو من مبادىء قليلة لينبث فى جميع أنحاء الوجود وشعابه فقد يقدر إن الطبيعة هى الكون وأن مادتها الأولى هى الماء وأن هذا الماء يتحول من ناحية ألى أرض وحيوان ونبات ومن الناحية الأخرى إلى هواء فنار ويذهب أن هذا التحول نتيجة صفة من صفات المادة وخاصة من خواصها وهى الحياة الذاتية فيصل بهذا إلى تحديد الخطوط العامة لنشأة الكون وتصوير نظامه الجامع أما حقيقة المعادن وأنواعها وتركيب كل نوع منها أو فصائل النبات والفروق بينها فى التركيب والسلوك فهو من التفصيلات التى لا يشغل بها الفيلسوف نفسه و إنما يتركها للعلم .

وقد يحاول أن يفسر الطبيعة دون أن يفترض مقدما أنها الكون كله فيتسع أمامه أفق البحث و ينتهى به الأمر إلى كون فسيح مترامى الأطراف فمثلا قد يفترض أن الطبيعة مادة وصـور و يشعر بأن المـادة والصـور حقيقتان متباينتان وأن ائتلاف المـادة والصـور حادث لا يمكن أن يكون قد تم وحـده فيفترض وجود إله ، ثم يصف الإله فينزهه عن المـادة ولواحقها وعن الحـلول فى الزمان

والمكان ، فاذا بنا أمام كون كبير فيه الطبيعة ، وفيه ما وراء الطبيعة ، ولكنه في كل من الحالين يكون قد وصل إلى الهدف الذى يحاوله ، وهو معرفة الكون كله فى صورته العامة .

وهو إذ يحاول معرفة الوجود يسلك إلى المعرفة سبيلا خاصاً ، وهو التفكير ، فيفترض الفروض ويحاول إثباتها كما يفعل كل العلماء ، ولكنه هنا يقوم بعمله هذا بطريقة خاصة تفرضها عليه طبيعة المادة التى يعالجها ، فالعالم الحديث الذى يدرس النبات أو الحيوان أو المعادن يعالج مادة يمكن أن يشاهدها ولا يتردد أن يتخذ من المشاهدة أساساً لدراسته ، فهو يدعها تهتف فى نفسه بأنواع الفروض العلمية ، وهو أيضا يتخذ من ملاحظاته الحسية أو تجاربه العملية وسيلة لإثبات تلك الفروض . أما الفيلسوف : فيختلف موقفه فى هذا عن موقف العالم ، فهو يعلم أن فروضه تقع وراء عالم الحس ، وأنه لا يمكن إثباتها بالملاحظة الحسية ، أو التجارب الحسية ، ولا مناص من الاستعانة على دراستها بالاستنباط ، فيتخذ مثلا من الصور الظاهرة فى المادة دليلا على أن هناك صانعا وراء الطبيعة ، أودع صور النبات والحيوان فى المادة الكونية الغفل ، ويستدل بدقة هذا النظام على علمه وحكمته ، ولا يفكر على الإطلاق فى تحقيق هذا الفرض بالملاحظة أو التجارب الحسية ، كما يفعل العلماء ، فاذا كانت الفلسفة تفكيرا فهى تفكير من نوع خاص .

والفلسفة فى هذا كله تعالج الكون كوجود ، فهى تحدد الموجود حقا وتحاول أن تفرق فى عناصر الكون بين المبدأ الأول الذى يصدر عنه ما سواه ، وبين الظواهر الطبيعية الصادرة عن المبادىء الكونية العليا ، ولكن الفلسفة لم تقصر

بحوثها على معضلة الوجود ، بل عالجت أيضا معضلات فكرية أخرى ، ولعل أهمها جميعا مسألة القيم الإنسانية ، والذى أثار مشكلة القيم هو ما اكتشفه الفلاسفة من أن الإنسان فى حكمه على الأشياء لا يقتصر على الحكم عليها بالوجود وعدمه ، بل يصفها أيضا بصفات أخرى ، كالخير والشر والجمال والقبح . هذا النوع من الأحكام هو الذى أثار مسألة القيم ، والفلسفة هى وحدها القادرة على دراستها ، وهذه قضية تظهر صحتها إذا ما تذكرنا أن العلم لا يدرس إلا ما يقع فى نطاق الملاحظة الحسية أو الباطنية ، وما يمكن تحقيقه بالتجارب العملية .

ومن الواضح : أننا لا نرى صفة الخير ولا صفة الشر ، فاذا رأينا عملا خيراً أو رجلا شريرا رأينا العمل أو الرجل ، ولكننا لا نرى صفة الخير فى العمل ولا صفة الشر فى الرجل ، لأنها صفات غير حسية ، والنتيجة الطبيعية أنه لا يمكننا أن نستخدم الأسلوب العلمى القائم على الملاحظة والتجارب فى تلك الدراسة ، وكذلك الحال بالنسبة للجمال والقبح ، وإذن : فالفلسفة هى السبيل الوحيد لدراسة هذه الموضوعات لأنها تستعين بالعقل ، والعقل يدرك هذه القيم ويستطيع أن يدرسها

وقد اهتم الفلاسفة بدراسة الخير والشر والجمال والقبح ، وخاضوا فى جميع نواحى هذه المعضلات ، ففكروا فى الموضوعية وحاولوا أن يتبينوا حقيقة الموقف ، فمن الممكن أن يكون الناس مخدوعين فيما ينسبونه إلى الأشياء من خير وشر وجمال وقبح ، ومن الجائز أن لا يكون لهذه الصفات وجود فى الكون ، وأن تكون مجرد أوهام وخيالات ، ولهذا واجه الفلاسفة موضوعية القيم بشجاعة وصبر وانتهى كثير منهم إلى الإيمان بموضوعيتها .

وكذلك حاول الفلاسفة تحديد معنى الخير والشر والجمال والقبح ، وبيان

الأشياء والأعمال التي تتصف بهذه الصفات ، والدور الذي يجب أن يلعبه الخير والشر والجمال والقبح في حياة الإنسان ، وقد اعتمد الفلاسفة في هذا كله على العقل فاستعانوا به على معرفة موضوعية القيم وتحديد طبيعتها ومهمتها في الحياة الإنسانية .

الفلسفة اذن هي تلك الرغبة الإنسانية الجامحة التي تتملك بعض النفوس المستوحشة في هذا الكون الغامض الفسيح فتدفعها إلى تعرف الوجود كله في جملته لا في تفصيله وتعرف مكان الإنسان منه ومستقبله فيه وتثيرها إلى تحسس صفاته الروحية كالخير والشر والجمال والقبح وتحديد مكانها من الحياة الإنسانية وهي ككل رغبة في المعرفة تستعين بالتفكير ولكنه التفكير النظري لا التجريبي .

أما نتائجها ، فهي تلك النظريات الكثيرة في طبيعة الكون والقيم الإنسانية التي تعزى إلى أفلاطون و إرسطر ، وديكارت ، واسبينوزا ، وسواهم من كبار الفلاسفة وصغارهم ، ولكن الفلسفة ليست هي النتائج ، وانما هي روح التفكير الحر وأسلوب البحث المستقيم ، وليس أضر على المشتغلين بالفلسفة من أن يخلطوا بين الأمرين فنتيجة هذا الخطأ الوقوع في التقليد الذي يسلم صاحبه الى الجمود والعقم وركود الفكر .